سلسلة العقائد
وأسرارها الروحية

تقريب الدين بين أيدي المسلمين

النبوات

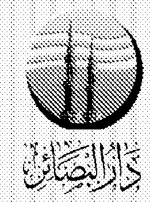
حاجة البشر إلى الأنبياء والرسل

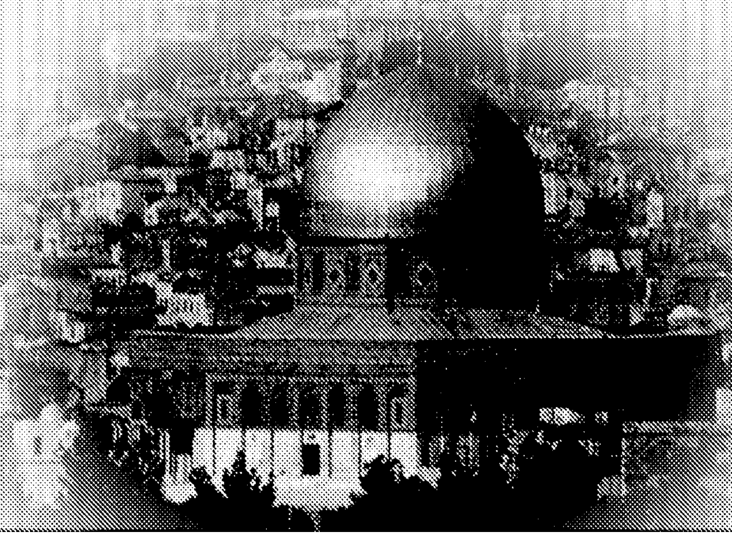
صفات الأنبياء والرسل

عصمة الأنبياء والرسل

الرسالة الخاتمة

تأليف
وائل محمد عبده





المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير النبيين والمرسلين؛ سيدنا محمد الصادق الأمين،وعلى آله وصحابته ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

أيها القارئ الكريم.

لك أن تتخيل كيف يكون حال البشر إذا لم يُرسَل إليهم رسل .

كيف سنعرف الله وصفاته وما يجب له وما يستحيل؟ وكيف نعبده؟ وكيف نشكره؟ وكيف نتوصل إلى الشرائع والأحكام؟

كيف نعرف أمور الآخرة وتفاصيلها من البعث والنشور والحساب والميزان والثواب والعقاب؟

إن العقل لا يستقل بمعرفة تلك الأمور وحده.

فمن نعم الله أن أرسل إلينا رسلًا ولم يتركنا نتخبط في هذه الحياة ونضل الطريق المستقيم.

ومن أركان العقيدة الإسلامية الإيمان بالرسل؛ فلا يكون المؤمن مؤمنًا ولا المسلم مسلمًا إذا لم يؤمن بنبي أو رسول ثبتت نبوته ورسالته بالقرآن أو السنة الصحيحة.

أخي القارئ

لابد أنك تتشوق لمعرفة ما يخص الأنبياء والمرسلين مصابيح الهدى وقادة الأمم وقدوة المصلحين وأفضل ما يدلك على ذلك هو دين الإسلام.

ففي الحقيقة لا يوجد دين على وجه الأرض وقّر الأنبياء والرسل وأنزلهم منازلهم غير الإسلام؛ فقد أعلى الإسلام من قدر الرسل وبيَّن وظيفتهم ونزههم عما أُلحق بهم من الشبهات والتهم الباطلة، وليس ذلك بغريب من الإسلام الذي أتى بكل ما هو عظيم وبكل ما فيه خير الدنيا والآخرة.

والأنبياء- في الإسلام- إخوة؛ ربهم واحد ودينهم واحد؛ رسالتهم واحدة وهدفهم واحد؛ رسالتهم وهدفهم هو أن يعبد الناس الله ربهم الحق ولا يشركون به شيئًا، وأن يأتمروا بأمره وأن ينتهوا عن نواهيه.

يقول الرسول ﷺ: «أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلي "لا إله إلا الله وحده لا شريك له"».

وهم لا يريدون من ذلك أجرًا ولا مالًا، وإنما يريدون الإصلاح والهداية والأجر العظيم من الله.

والمسلم يؤمن بكل الأنبياء والرسل ولا ينكر نبوة نبي ولا رسالة رسول؛ بينما النصارى ينكرون نبوة محمد ﷺ واليهود ينكرون نبوة عيسى ومحمد ﷺ.

وواجبنا نحو الرسل هو أن نحبهم ونوقرهم وأن ننزههم عن كل ما يسيء إليهم أو يطعن في شرفهم ورسالتهم.

وأخيرًا

أيها القارئ الكريم

ستعرف- من خلال هذا الكتاب- العقيدة الصحيحة في الرسل.

ما يجب لهم، وما يجوز في حقهم وما يستحيل.

وستعرف الردود الصحيحة عما أثير حول الأنبياء من الشبهات الباطلة وستعرف واجبك نحو الرسل.

ونعمة الله في إرساله للأنبياء والمرسلين .

وأدلة نبوة سيدنا محمد وعظمتها، وعلو مكانتها.

ندعو الله تعالى أن يتقبل منا وأن ينفع بهذا الكتاب.

وائل محمد عبده



تمهيد:

مباحث النبوات تتناول بالدراسة حاجة البشر إلى الرسالة الإلهية واصطفاء الله لرسله إلى خلقه، وما يجب لهؤلاء الرسل وما يجوز أو يستحيل في حقهم من الصفات، وتتناول كذلك بالدراسة وحي الله لهم ببيان إمكانه ووقوعه وما جعل الله في أيديهم من المعجزات فيما يبلغونه عنه سبحانه وتعالى.

* * *



الفصل الأول

حاجة البشرية إلى إرسال الأنبياء والمرسلين

إن إرسال الرسل من أكبر نعم الله تعالى على بني الإنسان، ولقد نوَّه القرآن الكريم إلى أن من فوائد إرسال الرسل التعريف بحقائق الدين وأصوله، والتعريف بأحكام الشريعة ليقوم الناس بالعدل، وفي هذا المعنى نقرأ قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾ [1] ومن بين الآيات أيضًا ما يشير إلى أن الناس لو تُركوا وشأنهم دون إرسال الرسل لبرَّروا كفرهم وفعلهم السيئات بعدم إرشادهم إلى الحق، وبعدم مجيء من يدلهم عليه، وفي هذا المعنى نقرأ قوله تعالى: ﴿ رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [2] وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴾ [3].

---

(١) الحديد: ٢٥.

(٢) النساء: ١٦٥.

(٣) طه: ١٣٤.

وبالنظر في آيات القرآن الكريم وبالتأمل في أهداف الرسالات الإلهية يمكننا أن نتعرف على شيء من وظائف الرسل وبعض مهماتهم، والتي منها:

- تبليغ الشريعة الإلهية للناس، ونقرأ هذا في قوله تعالى: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥ** ﴾[1].

ومن وظائف الرسل أيضًا أنهم يوضحون للأمم كل خير يعلمه الله لهم وكل شر يعلمه الله لهم؛ فإن العقل لا يستقل وحده بمعرفة كل ما ينفع الناس وكل ما يضرهم كما أنهم إن أدركوا وجود الله لن يدركوا بعقولهم كيف يعبدونه وكيف يشكرونه على نعمه الكثيرة، وإن توصلوا بتأملهم وتفكيرهم إلى وجود الروح فلن يستطيعوا أن يعرفوا أحكامها وأنها تعذب أو تنعم كما أنهم لا يدركون تفاصيل اليوم الآخر بما يتضمنه من حساب وثواب وعقاب فشاءت حكمة الله تعالى أن يرسل للناس رسلًا لكشف كل ذلك، وفي هذا المعنى يقول الرسول ﷺ: «**إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقًّا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم وينذرهم شر ما يعلمه لهم**».

- ومن المتفق عليه بين كل العقلاء أن الإنسان لا يمكنه أن يعيش منفردًا، وهذا يستلزم إقامة علاقات بين أفراد جنسه، وبالتالي فهو في حاجة إلى قوانين تنظم هذه العلاقات حتى لا تتعارض المطالب وتتداخل المصالح لأن الإنسان

---

(١) المائدة: ٦٧.

بطبيعته يقع تحت سلطان الشهوة والهوى، وتعتريه آفات الغفلة والخطأ، ومن الممكن أن يضل في معرفة الخير من الشر والحق من الباطل، وهنا تتجلى حاجة البشرية الضرورية إلى تنظيم مناسب محكم لمعاملاتهم يهتدون بهداه الذي يؤدي بهم إلى النجاة عن طريق السير على الصراط المستقيم، ويبتعدون عن الخصومات والمنازعات ويحفظ لكل إنسان حقه الطرف الآخر، ونقرأ في ذلك قوله تعالى: ﴿ **وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ** ﴾[1].

- والإنسان يميل إلى حب السيطرة والتسلط ولا يصلحه إلا الأخلاق الحميدة التي هي سر بقاء الأمم وتقدمها.

ومعلوم أن الأخلاق تختلف مفاهيمها من شخص لآخر، وقد تتغير بتغير الزمان وتختلف باختلاف المكان كاختلافها الآن بين دول الشرق ودول الغرب.

فكانت من هنا وظيفة الأنبياء في إتيانهم بمعايير ومفاهيم ثابتة لا تختلف باختلاف الأشخاص والأزمنة والأمكنة، ولن نبالغ إذا قلنا: إن الدين هو حسن الخلق فقد مدح الله نبيه فقال سبحانه: ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ** ﴾[2] ووصفت السيدة عائشة الرسول ﷺ فقالت: «**كان خلقه القرآن**»، وقد أخبر النبي ﷺ عن أبرز أهداف بعثته فقال: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**» فلهذا أرسل الله

---

(١) يونس: ٤٧.

(٢) القلم: ٤.

الرسل ليبلغوا ما ينبغي اعتقاده، وما يجب على الإنسان عمله حتى لا يضل أو يضيع وحتى تستقيم أمور الدنيا والآخرة، ويتمكن من تحصيل أسباب السعادة فيهما؛ فحققوا عدل الله ورحمته بقيادتهم الأمم وسياستهم الدينية والدنيوية، وسوف يشهدون على الأمم بأنهم بلغوا الرسالة وأدوا الأمانة، وقدموا واجب النصيحة.

وصدق الله العظيم: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾[1] وقاله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[2].

- إن حاجة الإنسانية إلى الرسل كحاجتها إلى حياتها الآمنة المطمئنة، إذ لو تركت الحياة الإنسانية تسير وفق ما تمليه العقول لعاش الناس في خلاف دائم، وفي تنازع لا ينقطع، ولما اتفقوا على حقيقة واحدة تصلح معاشهم وآخرتهم؛ لأن العقول مختلفة في مقاصدها وغاياتها..

لذا كانت بعثة الأنبياء الذين بلّغوا عن خالق الإنسان ما يصلحه وما يهديه ضرورة لا مفر منها؛ وذلك ليتجنب العالم الانغماس في ظلمات الأطماع والأنانية والشرور.

---

(١) النحل: ٨٩.

(٢) البقرة: ١٤٣.

- لقد بَيَّن الرسل للناس ما يجب عليهم نحو خالقهم وما يجب عليهم نحو أنفسهم، وما يجب عليهم نحو آبائهم وما يجب عليهم نحو غيرهم، ولو اتبع الناس في كل زمان ومكان تعاليم أنبيائهم لعاشوا في سعادة غامرة ولفتح الله عليهم بركات من السماء والأرض.

لقد أثبتت الحياة أن الناس في كل زمان ومكان محتاجين إلى المصلحين الذين يعملون على ما فيه سعادة الأفراد والجماعات؛ إذ لولا هؤلاء المصلحون لظل كثير من الناس يتخبطون في ضلالهم وأهوائهم.

والأمم التي كثر فيها المصلحون كثر فيها الخير، والأمن، والرخاء، والتحضر.

أما الأمم التي قلَّ فيها المصلحون والآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر فإنها كثر فيها الشر والفسوق.

كما أن الرسل هم حلقة الاتصال بين خالق الناس والناس؛ فيتلقى الرسل الكرام من خالقهم من طريق الوحي ما يهدي الناس إلى ما فيه سعادتهم وفلاحهم، وهل هناك أعلم بما يصلح البشر من خالق البشر؟! اللهم لا، وقد بلَّغ الرسل الكرام رسالة الله وأدوا الأمانة بكل إخلاص، ولم تخلُ أمة من رسول يبشرها وينذرها قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾[1] وكان الرسل في كل أمة المرجع لغيرهم عند الحيرة وهم الهداة لهم إلى الطريق المستقيم.

---

(١) فاطر: ٢٤.

- ثم في وقوع الإرسال حكمة بالغة ورحمة للعالم شاملة، ولعل الموقف الآتي يكشف عن أهمية دعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام: يروى أنه ركب فريق من طلاب الجامعة في سفينة بغرض النزهة في البحر، وكان الملاح المجدف أميًّا، فجعلوا منه تسليتهم وسخريتهم فقال له طالب ذكي جريء: يا عم! ماذا درست من العلوم؟ أجابه: لا شيء يا عزيزي، قال: أما درست العلوم الطبيعية؟ أجابه: لا، ولا سمعت بها، فقال ثانٍ: لكنك لا بد درست الجبر والهندسة؟ فأجابه: وهذا أغرب، صدقوا أني لأول مرة أسمع بهذه الأسماء الهائلة... وهكذا دار الحديث بين ضحكاتٍ وسخرية، حتى قال أحدهم: كم عمرك يا عم؟ قال: أنا في الأربعين من عمري، قالوا: لقد ضيعت نصف عمرك يا عمَّنا، وسكت الملاح على ضيق، وهاج البحر، وارتفعت الأمواج، وأخذت السفينة تتراقص، وكان أول تجربة للطلاب في البحر، فقال لهم الملاح: ما هي العلوم التي درستموها يا شباب؟ وحاروا بادئ الأمر، ثم أخذوا يسردون له ما تعلمونه، وهم لا يفهمون ماذا أراد الملاح من سؤاله وبعدما قالوا كل ما عندهم تبسم الملاح وقال: هل درستم علم السباحة، وهل تعرفون إذا انقلبت هذه السفينة- لا قدر الله- كيف تصلون إلى شاطئ الأمان، قالوا: لا والله يا عم، هذا هو العلم الوحيد الذي فاتتنا دراسته، وما استطاع الملاح عندها إلا أن قال: إذا كنت قد ضيعت نصف عمري فقد ضيعتم عمركم كله؛ لأن كل هذه العلوم لا تنجدكم من هذه الأمواج.

فحال البشر بدون الأنبياء كحال هؤلاء الطلاب فإن البشر مهما حصَّلوا من العلوم فهم بحاجة إلى من يدلهم على طريق الله والسير فيه حتى يصلوا إلى رضوان الله، فإن العقول إذا لم تكن مرعية بهداية الله وتوفيقه ما كانت إلا وبالًا على صاحبها.

* * *

الفصل الثاني

حقائق حول النبوات

إرسال الرسل جائز في حق الله تعالى

مذهب أهل السنة والجماعة أن من أنواع الجائز العقلي على الله تعالى إرساله لجميع الرسل بدءًا بآدم أبي البشر إلى خاتمهم وسيدهم محمد ﷺ وعليهم أجمعين.

فإرسالهم جائز وليس بواجب كما ذهب إليه المعتزلة ولا بمستحيل كما ذهب إليه البراهمة.

أما المعتزلة فقد قالوا بالوجوب بناء على أصلهم المبتدع، وهو أنه يجب على الله تعالى فعل الصلاح والأصلح لعباده، فقالوا: إن النظام المؤدي إلى صلاح حال النوع الإنساني على وجه العموم في معاشه ومعاده لا يتم إلا ببعثة الرسل، وكل ما هو كذلك فهو واجب على الله تعالى، وهذه مقدمات باطلة؛ فالله تعالى لا يجب عليه شيء بل ذلك من فضله، وأما الطائفة الثانية القائلة بالاستحالة فقد علّلت قولها: بأن إرسالهم عبث، لأنه يُستغنى عنهم بالعقل؛ بأن يجعل أساس فعل الشيء تحسين العقل إياه، وأساس ترك الشيء تقبيح العقل إياه، والعبث على الله تعالى محال، فيكون إرسال الرسل محال، ويرد على هذا: بأنا لا نسلم أن إرسالهم عبث؛ لأن الأحوال إن انحصرت فيما ذكروا فالبعثة تؤيد وتساند العقل، وإن لم تنحصر - وهو الواقع - فإنها

تفيد حكم ما لا يستطيع العقل الاستقلال به؛ فإن ما يوافق العقل قد يستقل بمعرفته كوجود الله تعالى وصفاته التي دل عليها الكون؛ كالعلم والإرادة والقدرة- فيعاضده النبي ويؤكده؛ فيكون الدليل الشرعي مع الدليل العقلي بمنزلة الأدلة العقلية على مدلول واحد، كما تترادف الدلائل العقلية على التوحيد، وقد لا يستقل به فيدل عليه النبي ويرشده إليه كرؤية الله يوم القيامة والحشر والبعث وكقبح الصوم في مثل أول شوال وعاشر ذي الحجة وكحسنة في مثل الصيام في رمضان.

الإيمان بالرسل ركن من أركان الإيمان

الإيمان بالرسل والأنبياء من أركان الإيمان لا يتم الإيمان إلا به.

فلا يكون المسلم مسلمًا إلا إذا آمن بأن الله أرسل رسلًا، ويجب عليه أن يؤمن بمن ذكر الله أسماءهم في القرآن ومنكر ذلك كافر، قال الله تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾[1].

وقال سبحانه: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَـٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَـٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ

---

(١) البقرة: ٢٨٥.

﴿ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١٣٦ ﴾[1]، وفي حديث جبريل المشهور حين جاء النبيَ ﷺ في صورة أعرابي يسأله عن الإسلام والإيمان والإحسان قال ﷺ عن الإيمان: «**أن تؤمن بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره**»[2].

معنى الإيمان بالرسل

معنى الإيمان بالرسل هو التصديق الجازم بأن الله تعالى بعث في كل أمة رسولًا يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له والكفر بما يُعْبَد من دونه، وأن جميعهم صادقون بارون راشدون كرام بررة أتقياء أمناء هداة مهتدون وأنهم بلغوا جميع ما أرسلهم الله به؛ فلم يزيدوا فيه ولم ينقصوا منه، وأنهم كلهم كانوا على الحق المبين والهدى.

اتفقوا جميعًا في كلمة التوحيد وأصول الدين، وأما فروع الشرائع من الفرائض والأحكام والمعاملات فقد تختلف؛ فيفرض على هؤلاء ما لا يفرض على هؤلاء، ويخفف على هؤلاء ما يشدد على أولئك ويحرم على أمة ما يحل للأخرى، وبالعكس؛ لحكمة بالغة أرادها ربنا ﷻ؛ لاختلاف العقول والأفكار، وتغاير الأزمنة والأمكنة؛ قال تعالى: ﴿ لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ ﴾.

---

(١) النساء: ١٣٦.

(٢) رواه مسلم.

وكذا الإيمان بهم يقتضي الإيمان بكل نبي ورسول فالإيمان بجميعهم متلازم؛ من كفر بواحد منهم فقد كفر بالله تعالى وبجميع الرسل عليهم السلام.

ولذلك وجب الإيمان بالأنبياء والرسل على الإجمال والتفصيل.

الإيمان بالرسل إجمالًا وتفصيلًا

بأما إجمالًا: بأن يؤمن المرء بكل نبي، وبكل رسول ممن عرف نبوتهم ورسالتهم وممن لم يعرف.

وذلك لقوله تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾.

فلهذه الآيات وغيرها يؤمن المؤمن برسل الله تعالى، ولا يفرق في الإيمان بهم بين رسول ورسول كما فعل اليهود والنصارى؛ حيث آمن اليهود بأنبياء بني إسرائيل وكفروا بعيسى ابن مريم ومحمد ﷺ، ولا كما آمن النصارى بكل الأنبياء وكفروا بخاتمهم وإمامهم محمد ﷺ، وقد كفَّر الله تعالى وتوعد بالعذاب الأليم من يؤمن ببعض الأنبياء ويكفر ببعض في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ

وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴾.

وأما تفصيلًا، بأن يؤمن المرء بكل نبي ورسول عرف نبوته ورسالته عن طريق الوحي إيمانًا تفصيليًّا فمن عرفهم عن طريق الوحي الإلهي بأسمائهم آمن بهم واحدًا واحدًا على التفصيل.

فيجب الإيمان بخمسة وعشرين نبيًّا ورسولًا؛ قد ذكرهم الله تعالى في كتابه الكريم، وهم آدم، وإدريس، ونوح، وهود، وصالح، وإبراهيم، ولوط، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، ويوسف، وشعيب، وأيوب، ويونس، وموسى، وهارون، وإلياس، واليسع، وذو الكفل، وداود، وسليمان، وزكريا، ويحيى، وعيسى، ومحمد صلى الله عليهم وسلم أجمعين.

وقد ذُكروا في القرآن الكريم، منهم ثمانية عشر في آية: ﴿ وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ كُلًّا هَدَيۡنَاۚ وَنُوحًا هَدَيۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحۡيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلۡيَاسَۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطٗاۚ وَكُلّٗا فَضَّلۡنَا عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾[1].

---

(١) الأنعام: ٨٣-٨٦.

وذُكر السبعة الباقون مفرقين في عدة سور من القرآن الكريم، وهم: آدم، وإدريس، وهود، وصالح، وشعيب، وذو الكفل، وخاتمهم محمد ﷺ.

اعتقادنا في الرسل

يجب علينا أن نؤمن بأن الله بعث رسله إلى الخلق لتبشيرهم برضوان الله وثوابه وجنته إن آمنوا به وبرسله وأطاعوه، وإنذارهم بغضب الله وعقابه وناره إن كفروا به وعصوا رسله؛ قال تعالى: ﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾[1].

كما يجب علينا أن نؤمن بأن جميع الرسل بعثهم الله لتحقيق غرض أساسي واحد هو عبادة الله ﷻ وإقامة دينه وتوحيده؛ فقد قال سبحانه: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾.

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّـٰغُوتَ ۖ ﴾.

كما يجب علينا أن نؤمن بأن كل رسول أرسله الله أدى أمانته وبلغ رسالته على الوجه الأكمل وبيَّنها بيانًا شافيًا كافيًا.

ويجب علينا طاعتهم وعدم مخالفتهم؛ لأن طاعتهم من طاعة الله سبحانه؛ قال تعالى: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ ﴾.

---

(١) الأنعام: ٤٨-٤٩.

كما يجب علينا أن نقتدي بهم؛ فهم صفوة خلق الله قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾[1] وقال أيضًا: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾[2].

ويجب علينا أن نعتقد بأنهم أكمل الخلق علمًا وعملًا، وأكملهم أخلاقًا، وأن الله سبحانه خصَّهم بفضائل لا يشاركهم فيها أحد، وأنه عصمهم ونزههم عن الكذب والخيانة والكتمان والتقصير في التبليغ، وعن الكبائر كلها، وقد تقع منهم زلات أو عثرات بسيطة بالنسبة إلى ما هم عليه من المنزلة العالية والمقام الرفيع كما وقع لآدم عليه السلام في أكله من الشجرة على وجه النسيان، ولكنهم لا يستمرون عليها ويعاتبهم الله عليها بل ويُوَفَّقون للتوبة منها.

كما يجب علينا أن نؤمن بأن رسل الله جميعًا كانوا رجالًا من البشر، فلم يكونوا من الملائكة ولم يبعث الله أنثى؛ قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالاً ﴾[3].

ونؤمن أن الله سبحانه لم يخصهم بطبائع أخرى غير الطبائع البشرية، وإنما اختارهم سبحانه من الرجال الذين يأكلون ويشربون، ويمشون في الأسواق، وينامون، ويجلسون، ويضحكون، ولهم أزواج وذرية، ويتعرضون للأذى،

---

(١) الأحزاب: ٢١.

(٢) النساء: ٦٤.

(٣) يوسف: ١٠٩.

وتمتد إليهم أيدي الظلمة وينالهم الاضطهاد وأنهم يموتون وقد يقتلون بغير حق وأنهم يتألمون ويصيبهم المرض وسائر الأعراض البشرية التي لا تؤدي إلى نقص في مراتبهم العلية بين الخلق، وقد دل على ذلك كثير من النصوص منها قوله تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ ﴾[1].

وقد قال رسول الله ﷺ: «ولكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء»[2].

وكان النبي ﷺ يمرض ويتألم، وكان يصيبه الحر والبرد والجوع والعطش، والغضب والملل والتعب، ونحو ذلك مما لا نقص عليه فيه.

ونؤمن أنهم لا يملكون شيئًا من خصائص الألوهية، فلا يتصرفون في الكون ولا يملكون النفع أو الضرر، ولا يؤثرون في إرادة الله تعالى ولا يعلمون الغيب إلا ما أطلعهم الله عليه؛ قال تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا

---

(١) الرعد: ٣٨.

(٢) متفق عليه.

شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾[1].

وقال أيضًا: ﴿ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ ﴾[2].

ويجب علينا أن نؤمن بأن رسل الله معصومون عن أية صفة نقص تقدح في دينهم وطاعتهم لله جل وعلا أو في مقدرتهم على تبليغ الرسالة التي حملوها، فقد قال سبحانه في حقهم: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ۝٨٩ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ ﴾[3].

فهم قد بلغوا الكمال في الأمانة والصدق والفطانة والذكاء والتبليغ وغيرها من الأخلاق التي لا بد منها للقيام بالعبء الذي حملهم الله إياه، وقد شهد الله تعالى لهم بالصدق فقال عز شأنه عن إسماعيل ﷺ: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ﴾[4].

---

(١) الأعراف: ١٨٨.

(٢) الجن: ٢٦-٢٧.

(٣) الأنعام: ٨٩-٩٠.

(٤) مريم: ٥٤.

وقال عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ ﴾[1].

وغير ذلك من الآيات التي مدحتهم بأفضل الصفات.

ويجب علينا أن نؤمن بأن الله سبحانه أيدهم بالمعجزات الدالة على صدقهم فيما جاءوا به من عند ربهم سبحانه، فنؤمن بكل ما ذكر في القرآن الكريم منها، وبما وردت فيه الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ.

وجميع ما ذكرناه عن الرسل يتساوى فيه جميع من اصطفى الله من الرسل، ونؤمن مع هذه المماثلة أن الله فضَّل بعضهم على بعض؛ لقوله تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ ﴾[2].

ثمرات الإيمان بالرسل

* من ثمرات الإيمان بالرسل العلم برحمة الله تعالى ورحمته بعباده وعنايته بهم حيث أرسل إليهم الرسل لكي يهدوهم إلى الصراط المستقيم فبينوا لهم كيف يعبدون الله وذلك يؤدي بهم إلى الفوز برضا الله ودخول جنته كما أن المؤمن

---

(١) مريم: ٤١.

(٢) البقرة: ٢٥٣.

يعيش في دنياه حياة طيبة لا هَمَّ فيها ولا حزن بل طمأنينة وسلام؛ فإن العقل لا يستقل بمعرفة ما يصلح الإنسان في معاشه ومعاده في الآخرة.

* شكره سبحانه وتعالى على هذه النعمة الكبرى.

* محبة الرسل وتوقيرهم وتعظيمهم واعتقاد ما يليق بهم؛ فهم قادة الأمم إلى الخير والصلاح لا يريدون منهم أجرًا؛ فإن كل رسول كان يقول لقومه: يا قوم لا أسألكم عليه من أجر، بل يريدون الصلاح والنجاة للخلق فقد قال سيدنا شعيب لقومه: ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ﴾[1].

* ومن ثمرات الإيمان بالرسل ضرورة الاقتداء بهم؛ فقد قال الله لرسوله محمد عن الرسل والأنبياء: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ ﴾[2] وذلك لأن رسالتهم واحدة وأخلاقهم واحدة وهدفهم واحد، وأمرنا الله تعالى بالاقتداء بالنبي ﷺ فقال: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾[3] وأمر باتباعه في كل ما أمر به وكل ما نهى عنه فقال: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ ﴾[4]

---

(١) هود: ٨٨.

(٢) الأنعام: ٩٠.

(٣) الأحزاب: ٢١.

(٤) الحشر: ٧.

وذلك أن طاعة الرسول من طاعة الله؛ قال تعالى: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾[1].

الثابت والمتغير في رسالة الأنبياء

الثابت في الرسالات

قال تعالى: ﴿ قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾. فقد بدأت هذه الآية الكريمة بإثبات الإيمان بالله تعالى باعتباره أصلًا للإيمان بالنبوة ثم عمَّمت الآية ضرورة الإيمان بجميع الأنبياء السابقين؛ من نعرف ومن لا نعرف على وجه الإجمال، ثم جاءت الآية التالية عقب هذه الآية فأعلنت الحقيقة الكبرى المتمثلة في طريق النجاة الوحيد فقالت: ﴿ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾[2].

والأنبياء يكملون الرسالة الإلهية للبشر كلٌّ في زمانه ومكانه حتى وصلت الرسالة إلى ختامها ببعثة محمد ﷺ؛ فهم حلقات في سلسلة متصلة، وفي صحيح

---

(١) النساء: ٨٠.

(٢) آل عمران: ٨٥.

الحديث يقول عليه الصلاة والسلام: «**مثلي ومثل الأنبياء قبلي كمثل رجل بنى بيتًا فأحسنه إلا موضع لبنة فيه، فجعل الناس يطوفون به ويتعجبون ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة، فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين**».

إن الرسالات الإلهية تلتقي كلها في أصول العقيدة والعبادة والأخلاق؛ فكل نبي دعا قومه إلى التوحيد الخالص؛ قال الله تعالى: ﴿ **وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾** ﴾[1].

واشتركت العبادة والأخلاق في إطارها العام بين جميع الرسل؛ قال تعالى: ﴿ **وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ** ﴾.

وهذا المعنى هو المشار إليه في قول رسول الله- ﷺ-: «الأنبياء إخوة من علات[2] أمهاتهم شتى ودينهم واحد»[3].

---

(١) الأنبياء: ٢٥.

(٢) إخوة من علات: أي من أب واحد وأمهات شتى.

(٣) رواه البخاري ومسلم.

أما تفصيلات الأحكام والعبادات والشرائع فتلك قضية تخضع لظروف الزمان والمكان؛ فما يصلح لأمة قد لا يتناسب مع أمة أخرى، بل ما يصلح لأمة في زمن قد لا يستمر لزمن آخر.

قال تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾[1].

ولله تعالى حكمة في تغيير الشرائع من أمة إلى أمة وفي زمن دون زمن آخر؛ فإن الطبيب- ولله المثل الأعلى- قد يصف دواء لمريض ولا يصفه لمريض آخر يتشابه معه في المرض، وقد يصف دواء لمريض في وقت دون آخر، ولمدة لا يتجاوزها..

فالله تعالى له الخلق والأمر وهو أعلم بعباده، ويعلم ما يصلح حالهم، قال تعالى: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾[2].

ورسالات الله على مر العصور تمثل مراحل لمنهج التربية الربانية للبشر؛ فقد حرمت رسالة موسى ﷺ أشياء كثيرة على بني إسرائيل؛ قال تعالى: ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ

(١) المائدة: ٤٨.

(٢) الملك: ١٤.

شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴾[1].

ثم جاء عيسى ﷺ بشريعة جديدة فقال لقومه: ﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْۚ ﴾[2].

ولما جاء محمد ﷺ رسولًا نبيًّا وصفه الله بقوله: ﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْۚ ﴾[3].

المنهج الذي اتبعه الرسل في الدعوة

أول عمل قام به الأنبياء مع أممهم هو إرشاد العقول إلى أن الإله الذي يجب أن يُفرد بالعبادة ويُلجأ إليه في قضاء الحاجات هو الله سبحانه وتعالى المنفرد بتصريف الأمور المتصف بالكمالات المنزه عن النقائص، وإلى أن ما عكفوا على عبادته من الأصنام والكواكب والنار لم تتحقق فيه صفات الإله فليس مصدرًا للخلق ولا قادرًا على التصرف؛ فالإله لجميع الخلائق واحد وهو الله سبحانه وتعالى.

---

(١) الأنعام: ١٤٦.

(٢) آل عمران: ٥٠.

(٣) الأعراف: ١٥٧.

قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ ﴾[2].

غير أن طرق دعوة الناس إلى توحيد الله وانفراده بالألوهية وإبطال ألوهية كل ما سواه اختلفت لاختلاف مراتب الناس واستعداداتهم؛ فمنهم أصحاب النفوس العالية المستعدون لإدراك المعاني الراغبون في تحصيل المعرفة واليقين وإدراك الأشياء على حقيقتها.

وهذا الفريق كانت الأنبياء تسلك في دعوته وهدايته إلى الدين الحق إقامة الحجج القطعية المفيدة للعقائد المزيلة للشُّبَه لأن استعدادهم يؤهلهم إلى إدراك الأدلة والبراهين والخضوع لما تقتضيه.

ومنهم العوام الذين تعودوا الحسيات والماديات وليس عندهم الاستعداد الكافي لإدراك البرهان والأدلة العقلية ولكنهم لا عناد عندهم، وهذا الفريق كان الأنبياء يختارون في إرشاده إلى التوحيد طريقًا يناسب استعداده وهو الأدلة الإقناعية والعِبَر النافعة التي ترغبهم في إجابة الرسول وتصديقه في قوله.

---

(١)الأنبياء: ٢٥.

(٢)النحل: ٣٥.

ومنهم من امتاز عن العوام فكان إدراكهم أرقى ولكن نفوسهم تطبعت بصفات رديئة من خبث وعناد وتعصب وتقليد أعمى حتى أصبحت لا تخضع لسلطان الحق بل تجادل وتعاند، وهذا الفريق كانت الأنبياء تسلك معه طريق المجادلة بأحسن الطرق ليرق قلبه؛ فكانوا يرفقون بهم ويختارون في الاستدلال أيسر الوجوه وأسهلها عليهم كما حدث من كثير من الأنبياء مع قومهم.

وقد لا يقتصر هذا الفريق على العناد وإنكار الحق فيعمل على إحباط الدعوة وصد الناس عن سبيل الله ويخيف الآمن ويتهدد المتمسك بالحق.

وفي تلك الحالة قد يلجأ النبي إلى الدعاء على قومه فينزل بهم العذاب كما قال سيدنا نوح: ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾[1] أو يأذن الله تعالى لنبيه بالجهاد حتى يتمكن من نشر الدعوة وإزالة قوة هؤلاء المعاندين فيصبح الناس في أمن من شرهم ويدخلون في دين الله مطمئنين على أنفسهم وأهليهم وأموالهم.

فإذا أجاب الناس دعوة نبيهم إلى التوحيد وتركوا عبادة الأوثان ورجعوا إلى رشدهم أرشدهم إلى ما كلفهم به الإله العظيم في أوقات مختلفة من صلاة وصوم وزكاة وحج وإلى ما يرجعون إليه في معاملاتهم مع بعضهم وما ينظم حياتهم في مختلف الشئون.

---

(١) نوح: ٢٦.

كذلك كل نبي كان يطلب من قومه أن يهذبوا أنفسهم بالتحلي بالأخلاق الفاضلة كالصدق والأمانة والعدل والمحافظة على العهود والرحمة.

ويُفصِّل لهم ما يوصلهم لرضا الله تعالى وما يعرضهم لغضبه عليهم مع بيان ما أعد لهم في الدار الآخرة من النعيم إذا وقفوا عند حدود الله تعالى وما أعده من العذاب بتعدي حدود الله.

وهذه الشئون المذكورة اشترك جميع الأنبياء في دعوة قومهم إليها قال تعالى: ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ۝ وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا ﴾[1]. وقال تعالى على لسان إبراهيم: ﴿ رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ﴾[2] وقال تعالى على لسان عيسى: ﴿ قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ۝ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا ۝ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي ﴾[3].

ويقول على لسان سيدنا شعيب: ﴿ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۚ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ

---

(١) مريم: ٥٤-٥٥.

(٢) إبراهيم: ٤٠.

(٣) مريم: ٣٠-٣٢.

يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾[1].



(١) هود: ٨٤-٨٥.



الفصل الثالث

معنى النبي والرسول والفرق بينهما

تعريف النبي

قد استقرأ العلماء تاريخ الأنبياء فوجدوا صفات مشتركة بينهم؛ فجمعوها وجعلوها تعريفًا للنبي وقالوا:

النبي: إنسان، ذكر، حر، خالٍ من العيوب المنفرة، أوحى الله إليه بشرع.

ونبين ذلك بشيء من التفصيل:

١- إنسان:

فالنبي من بني البشر، وليس هناك نبوة من الجن، وإن كانوا مكلفين بالعقائد والشرائع التي أوحى الله بها إلى أنبيائه؛ فأنبياء البشر هم الذين يبلِّغون عالم الجن، ويتولى أمرهم بعد ذلك دعاة منهم أو منذرون يشرحون لهم حقائق الدين كما في عالم الإنسان.

٢- ذكر:

فالنبي رجل من بني الإنسان وليس امرأة؛ لأن النبوة إمامة وقيادة وتقتضي مباشرة أمور تصعب على النساء كقيادة الجيش وتدبير أمور الجهاد، وقد تستدعي أشياء تحرم على النساء كالخلوة مع الأجنبي والسفر الطويل في صحبة

الرجال، ويعتري النساء بحكم طبيعتهن أحوال كالحيض والنفاس تتنافى مع مناجاة ملك الوحي والتلقي عن الله ﷻ.

قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ ﴾[1].

وحاول البعض أن يجعل نبوة في النساء مثل أم موسى ومريم، واستدل بقوله تعالى: ﴿ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ ﴾[2]. وقوله: ﴿ فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ﴿١٧﴾ ﴾[3].

وهذا الاستدلال مردود بأن الوحي إلى أم موسى وحي إلهام لا وحي نبوة، وليس يلزم من كلمة الوحي النبوة، فقد قال الله تعالى: ﴿ وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ ﴾[4]، بمعنى ألهمها بحكم الغريزة والفطرة، ومناجاة الملك لمريم لا يصح دليلًا على النبوة، فكم من مرة يتنزل فيها جبريل الأمين على مؤمنين صادقين في ليلة القدر وليسوا بأنبياء، قال تعالى: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ ﴿٤﴾ ﴾[5].

---

(١) الأنبياء: ٧.

(٢) القصص: ٧.

(٣) مريم: ١٧.

(٤) النحل: ٦٨.

(٥) القدر: ٤.

٣- حر:

جاء الأنبياء لقيادة البشر، ولم يبعث الله تعالى نبيًا إلا في منعة في قومه وشرف فيهم، حتى يسهل عليهم الاستجابة له، ولنقرأ قول الله تعالى: ﴿ **قَالُواْ يَـٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَـٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٍ** ﴾[1].

فالأنبياء جميعًا هم أشراف الناس، ومما يدل على ذلك قول رسول الله ﷺ: «**إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من بني إسماعيل بني كنانة، واصطفى من بني كنانة قريشًا، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم**»[2].

٤- خالٍ من العيوب المنفرة.

فالأنبياء معصومون من الأمراض المعدية والأخلاق الرديئة التي تتنافى مع مهمة التبليغ عن الله؛ وما ينسب إلى أيوب ﷺ من تناثر أعضائه وخروج الديدان من بدنه هو من الأباطيل التي يرفضها الإسلام، وكل ما حدث لأيوب أمر عادي، فقد معه أولاده وماله، وليس ذلك بقادح في النبوة، فإن ذلك يحدث لجميع البشر، والأنبياء من البشر. كذلك لا يكون النبي أعمى لأنه يحتاج إلى من يقوده، فكيف يؤدي رسالة ربه؟

---

(١) هود: ٩١.

(٢) رواه مسلم.

وما حدث ليعقوب عليه السلام من بياض عينيه لم يكن عمى حقيقيًّا، وإنما هو موقف حزن شديد جعله لا يستطيع تحقيق الرؤية، وكما يحدث لكثير من الناس في الأزمات الشديدة فإنه لا يدري ما يحدث حوله؛ ولهذا لما زال حزن يعقوب وكشف الله عنه هذا الكرب عاد إليه بصره سريعًا؛ قال تعالى: ﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾[1].

وقال جل شأنه: ﴿ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ﴾[2].

٥- أوحى الله إليه بشرع:

فمهمة النبي هي التلقي عن الله تعالى ما شرعه الله للإنسان وكلَّفه به.

وأنواع التلقي عن الله تعالى حددتها الآية الكريمة: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾[3].

---

(١) يوسف: ٨٤.

(٢) يوسف: ٩٦.

(٣) الشورى: ٥١.

قال أهل السنة: النبوة اختصاص العبد بسماع وحي من الله تعالى بحكم شرعي تكليفي، سواء أمر بتبليغه أو لا.

أما الرسالة فهي اختصاص العبد بسماع وحي من الله تعالى بحكم شرعي تكليفي أمر بتبليغه، والرسول إنسان بعثه الله تعالى إلى الخلق لتبليغ الأحكام الشرعية، وعلى هذا يكون النبي أعم من الرسول، وجهة العموم هي أن النبي يُلاحَظ فيه اختصاص العبد بسماع الوحي من الله فقط، سواء أمر بالتبليغ أو لم يؤمر.

وقيل: إن النبي أعم من الرسول، لكن جهة العموم غير ما ذُكِر، وهي أن النبي لا يشترط أن يكون معه كتاب أو شريعة جديدة أما الرسول فيشترط أن يكون معه كتاب أو شريعة جديدة.

وقيل: إنهما متساويان فكل نبي رسول وكل رسول نبي، ولا فرق بينهما إلا من حيث الوصف العنواني؛ فمن حيث قال الله له: إنا أرسلناك قيل له رسول، ومن حيث كونه أنبأ الخلق بالأحكام قيل له نبي، وحينئذ تكون النبوة والرسالة شيئًا واحدًا.

الرأي الذي نختاره: وكل رأي من الآراء السابقة لا يخلو من نقد وردّ، وقد صرح القرآن بأن هناك فرقًا بين النبي والرسول؛ قال تعالى: ﴿ **وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا**

﴿ يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝ ﴾[1] فعطف النبي على الرسول يدل على أن الرسول غير النبي.

والرأي الذي نختاره في الفرق بينهما أن الرسول ذكر حر بعثه الله إلى قوم بشرع جديد بالنسبة إليهم وإن لم يكن جديدًا في نفسه كإسماعيل ﷺ إذ بُعث لجُرْهُم أولًا، والنبي يعمُّه ومن بُعث بشرع غير جديد كذلك.

ويؤيد ذلك ما حكاه القرآن الكريم عن موسى وهارون عليهما السلام في قوله تعالى على لسان موسى: ﴿ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ۝ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ۝ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ۝ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ۝ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ۝ هَٰرُونَ أَخِى ۝ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ۝ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ۝ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ۝ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ۝ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴾[2] إلى أن قال: ﴿ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ۝ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ۝ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ۝ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ۝ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا

---

(١) الحج: ٥٢.

(٢) طه: ٢٥-٣٥.

بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡنَآ أَنَّ ٱلۡعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾[1].

فهذه الآيات تدل على أن كُلًّا من موسى وهارون مُنبأ وموحى إليه من الله ومرسل ومأمور بتبليغ الوحي إلى فرعون وقومه، والآيات السابقة لها واضحة في أن الشريعة موحاة إلى موسى أساسًا، إذ في هذه الآيات أن الله ﷻ اختاره وأوحى إليه وأظهر على يديه ما يدل على صدقه ثم قال له: ﴿ **ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ** ﴾ ولم تكن مهمة هارون عليه السلام- كما صرح النص- إلا مهمة المشارك والمعاون في الدعوة إلى الله، ومثل هارون سائر أنبياء بني إسرائيل حيث كانت دعوتهم إلى شريعة موسى عليه السلام.

فخلاصة القول: أن الرسول على الإطلاق هو من أوحي إليه بشرع جديد وأمره الله بتبليغه، والنبي من أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه ويسمى رسولًا باعتباره مبلغًا عن الله ومرسلًا منه أي لا على الإطلاق، وهذا إذا كان الشرع الذي يدعو إليه تقريرًا لشريعة من قبله، وقد يكون جديدًا بالنسبة إلى المرسل إليهم، وأما إذا كان الشرع الذي يدعو إليه شرعًا جديدًا مطلقًا أوحي إليه فهو الرسول بالإطلاق.

---

(١) طه: ٤٢-٤٨.

النبوة لا تُكتسب فلا يكتسب العبد النبوة بمباشرة أسباب مخصوصة، كملازمة الخلوة والعبادة وتناول الحلال كما زعمت الفلاسفة؛ فالذي ذهب إليه المسلمون جميعًا أن النبوة إنما هي خصوصية من الله تعالى واصطفاء منه للعبد، وليس في وسع العبد أن يكتسبها.

ويفسر الفلاسفة النبوة: بأنها صفاءٌ وتجلٍ للنفس يحدث لها من الرياضات، وبالتخلي عن الأمور الذميمة والتخلق بالأخلاق الحميدة، والقول بأنها مكتسبة من أقوى المسائل التي كفرت بها الفلاسفة، ويلزم على قولهم باكتسابها أنه يجوز أن يكون هناك نبي بعد سيدنا محمد ﷺ أو معه، وذلك مستلزم لتكذيب القرآن والسنة، وإنكار لما هو معلوم من الدين بالضرورة؛ إذ من المعلوم بالضرورة ختم النبوة والرسالة بسيدنا محمد ﷺ وهو أمر مجمع عليه، ومنكره كافر.

فالاصطفاء للنبوة يكون بفضل الله تعالى، والفضل هو إعطاء الشيء بغير مقابل مطلقًا وذلك لا يكون لغيره تعالى.

قال القرطبي: ليس ما أعطاه الله تعالى لنبينا محمد ﷺ من الشرف والفضل يوم القيامة على جميع الأنبياء والرسل بعمله، بل بتفضيل الله إياه واختصاصه له.

فعليه يكون الاصطفاء بالنبوة والاختيار للرسالة إنما هو بفضل الله تعالى؛ كما قال تعالى: ﴿ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴾[1] وقوله: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾[2] وقوله: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾[3].

فهو سبحانه يعلم من كان مستجمعًا لشروط النبوة فيؤتيه إياها.

يقول الإمام ابن حجر العسقلاني: «**النبوة نعمة يمن بها الله على من يشاء ولا يَبْلُغها أحد بعلمه ولا كشفه، ولا يستحقها باستعداد ولايته، ومعناها الحقيقي – شرعًا – من حصلت له النبوة، وليست راجعة إلى جسم النبي، ولا إلى عَرَض من أعراضه ، بل ولا إلى علمه بكونه نبيًّا بل المرجع إلى إعلام الله له بأني نبأتك أو جعلتك نبيًّا، وعلى هذا فلا تبطل بالموت كما لا تبطل بالنوم والغفلة**».

اصطفاء الله لرسله

تقوم قضية النبوة على مسألة الاصطفاء الإلهي بمعنى أن الله تعالى يصطفي ويختار من شاء من خلقه لحمل رسالته إلى الخلق قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾[4].

---

(١) غافر: ١٥.

(٢) الأنعام: ١٢٤.

(٣) طه: ١٣.

(٤) الحج: ٧٥.

إن الله تعالى رحيم بعباده ورحمته وسعت كل شيء، ومن ذلك رعاية الله تعالى للإنسان في شئون حياته، والبشر يحتاجون لكي تسير حياتهم على النهج المستقيم إلى قانون له قوة الإلزام، وهذا القانون لابد أن يكون من رب البشر الذي له الخلق والأمر وله الحكمة البالغة.

والسبيل الوحيد لاتصال السماء بعالم الإنسان لكي يصل إلى ربه الذي يريد له الخير والسعادة الأخروية.

هو أن يصطفي الله تعالى من رسله من كان أهلًا لحمل الرسالة، وليس كل البشر مؤهلين لذلك لاختلاف عقولهم وطباعهم، والذي يحدد هذه المؤهلات هو الله تعالى لا البشر.

فالتلقي عن الله في أمر الدنيا والآخرة هو الحل الوحيد لمشكلة الإنسان، والاصطفاء الإلهي هو الأمر المعقول في هذا الجانب؛ قال تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ ﴾[1].

فالاصطفاء لا يخضع لإرادة البشر ورغباتهم ولكن الله سبحانه يختار للرسالة أكرم الناس وأصلحهم ومن هو بها جدير.

---

(١) الأنعام: ١٢٤.

– وقد أكد القرآن قضية الاصطفاء وجعل مردها إلى الله وحده في آيات كثيرة؛ فقال جل شأنه: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾[1].

فليس البشر كلهم مؤهلين للاطلاع على الغيب وتحمل أمانة التبليغ عن الله، ولكن الله جل شأنه يختار من البشر من هو أهل لهذا الشرف العظيم وتلك المسئولية الشديدة فيجب التصديق واليقين بقدرة الله على الاصطفاء وبالرسالة لمن اختارهم لهذه الأمانة الكبرى.

مرتبة الملائكة بعد مرتبة الأنبياء

أفضل الخلق على الإطلاق سيدنا محمد ﷺ، والأنبياء يتبعون النبي في الفضل فمرتبتهم بعده فيليه سيدنا إبراهيم فموسى فعيسى فنوح ويليهم بقية الرسل ثم الأنبياء غير الرسل مع اختلاف درجاتهم عند الله تعالى وبعد الأنبياء ملائكة الله فمرتبتهم تلي مرتبة الأنبياء في الجملة، والذي يلي الأنبياء من الملائكة رؤساؤهم جبريل فميكائيل فملك الموت ثم بقية الملائكة، وجبريل أفضل الملائكة على المشهور.

ومن أدلة تفضيل النبي على الملك أن الله تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم على سبيل التكريم له حتى قال إبليس: ﴿ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ ﴾[2]

---

(١) آل عمران: ١٧٩.

(٢) الإسراء: ٦٢.

ومنها قوله تعالى: ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾[1] لما فيه من الإشارة إلى العناية به، ولم يثبت ذلك للملائكة، ومنها قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[2] ومنها قوله: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[3] فدخل في عمومه الملائكة، والمسخر له أفضل من المسخر، كذلك طاعة الملائكة بأصل الخلقة وطاعة البشر غالبًا مع المجاهدة للنفس لما طُبعت عليه من الشهوة والحرص والهوى فكانت عبادتهم أشق وأصعب، ولأن الملائكة سلمت من وسوسة الشياطين وإلقاء الشبه والإغواء الجائزة على البشر، ولأن الملائكة تشاهد حقائق الملكوت وعالم السماء، والبشر لا يعرفون ذلك إلا بالإعلام؛ فلا يسلم منهم من إدخال شبهة أو غيرها، ولا يتم لهم الثبات إلا بمشقة شديدة ومجاهدات كثيرة.

والمعروف عن جمهور أهل السنة أن صالحي بني آدم أفضل من سائر الأجناس، والذين ذهبوا إلى تفضيل الملائكة الفلاسفة ثم المعتزلة وقليل من أهل السنة؛ فمنهم من فَاضَل بين الجنسين فقالوا: حقيقة الملك أفضل من حقيقة الإنسان؛ لأنها نورانية وخيِّرة ولطيفة من سعة العلم وصفاء الجوهر، وهذا لا

---

(١) ص: ٧٥.

(٢) آل عمران: ٣٣.

(٣) الجاثية: ١٣.

يستلزم تفضيل كل فرد على كل فرد؛ لجواز أن يكون في بعض بني الإنسان ما في ذلك وزيادة، ومنهم من خص الخلاف بصالحي البشر والملائكة.

وليس في المسألة رأي قاطع.

وقال تاج الدين السبكي: «ليس تفضيل البشر على الملك مما يجب اعتقاده، والسلامة في السكوت عن هذه المسألة، والدخول في التفضيل من غير دليل قاطع دخول في خطر عظيم، وحكم في مكان لسنا أهلًا للحكم فيه».

التفاضل بين الأنبياء

يقول الله تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ ﴾[1].

والتفريق بين الرسل هنا يراد به التفريق في الإيمان بهم والتصديق؛ بأن يؤمن ببعض ويكفر ببعض؛ فيجب علينا تصديق رسل الله جميعًا بعد الإيمان بهم وبرسالتهم وأن لا نفرق بينهم؛ فمن فرَّق بين رسل الله فآمن ببعضهم وكفر بالآخرين أو صدق بعضهم وكذب بعضًا كان من الكافرين، ومصداق ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ

(١) البقرة: ٢٨٥.

سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّاۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾[1]، وذلك لا يعارض قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِۗ ﴾[2].

فمع أن الأنبياء جميعًا لهم علو المكانة وصفات الكمال البشري فإن بعضهم أفضل من بعض بنص القرآن، وقال تعالى أيضًا: ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾[3] فأفضل الأنبياء خمسة وهم: محمد، ونوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى.

وقد نص الله عليهم في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴾[4].

فالله تعالى ذكر أنه أخذ العهد من الأنبياء على أن يقيموا الدين ويبلغوا الرسالة بكل أمانة ثم خصت بالذكر خمسة أنبياء تأكيدًا لشرفهم وعلو مرتبتهم.

ونص الله تعالى عليهم أيضًا في قوله تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ ﴾[5].

---

(١) النساء: ١٥٠-١٥١.

(٢) البقرة: ٢٥٣.

(٣) الإسراء: ٥٥.

(٤) الأحزاب: ٧.

(٥) الشورى: ١٣.

ويوصف هؤلاء الخمسة بأنهم أولو العزم وذلك لجهادهم العظيم في الدعوة إلى الله وصبرهم الجميل، قال تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿ **فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ** ﴾[1].

فالأنبياء جميعًا أفضل البشر وأولو العزم من الرسل أفضل الأنبياء، ومحمد ﷺ أفضل أولي العزم فهو ﷺ سيد ولد آدم وخير خلق الله.

قال ﷺ في الحديث الصحيح: «**أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وأول من ينشق عنه القبر وأول شافع وأول مُشَفَّع**».

فهو ﷺ أول من يُبعث يوم القيامة وأول طالب للشفاعة وأول مقبول الشفاعة.

وما ورد من النصوص التي تنهى عن التفضيل بين الأنبياء فإنه يُحمل على اعتقاد النقص في حق بعضهم وهو كفر لا يصدر من مسلم.

وأما قول النبي ﷺ: «**لا يقولن أحدكم أنا خير من يونس بن مَتَّى**» وقوله: «**لا تُفضلوني على موسى**» فذلك إما تواضع منه ﷺ وإما أنه صدر منه قبل أن يُعْلِمه الله تعالى بأنه أفضل الخلق عنده.

الإيمان بكتب الله عز وجل

من أركان الإيمان أن نؤمن بالكتب التي أنزلها الله على أنبيائه ورسله.

---

(١) الأحقاف: ٣٥.

قال تعالى في الأمر بالإيمان بكتبه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾[1].

ومن السنة حديث عمر بن الخطاب ﷺ والذي جاء فيه سؤال جبريل ﷺ للرسول ﷺ عن الإيمان، وجواب الرسول ﷺ له بأنه: «**الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره...**»[2].

فكما أن الله ﷻ قد أنزل القرآن على محمد ﷺ فقد أنزل كتبه من قبل على سائر الرسل.

ومن هذه الكتب ما سماه الله في القرآن الكريم ومنها ما لم يسم، والذي أخبرنا به ﷻ منها:

١ـ التوراة التي أنزلت على موسى ﷺ حيث قال سبحانه: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ ﴾[3].

---

(١) النساء: ١٣٦.

(٢) رواه الستة.

(٣)المائدة: ٤٤.

٢ـ والإنجيل الذي نزل على عيسى عليه السلام حيث قال تعالى: ﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[1] .

٣ـ والزبور الذي نزل على داود عليه السلام حيث قال تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾[2] .

٤ـ والصحف التي أنزلها الله على إبراهيم وموسى والتي أخبر عنها الله تعالى بقوله: ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾[3] . وبقوله أيضا: ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾[4] .

وأما الكتب الأخرى التي نزلت على سائر الرسل فلم يخبرنا الله تعالى عن أسمائها، وإنما أخبرنا سبحانه أن لكل نبي أرسله الله رسالة بلغها قومه فقال: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ

---

(١) المائدة: ٤٦.

(٢) الإسراء: ٥٥.

(٣) النجم: ٣٦-٤٢.

(٤) الأعلى: ١٤-١٩.

﴿ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ﴾[1]. فيجب علينا أن نؤمن بهذه الكتب التي لم تُسمَّ إجمالًا.

ولا يجوز لنا أن ننسب كتابًا إلى الله تعالى سوى ما نسبه إلى نفسه مما أخبرنا عنه في القرآن الكريم.

ويجب الإيمان بأن جميعها يصدق بعضها بعضًا لا يكذبه، كما قال تعالى عن الإنجيل: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ﴾[2]، وقال عن القرآن: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ﴾[3]، وكل من كذب بشيء منها أو امتنع من الانقياد لها مع تعلق خطابه به يكفر بذلك كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ﴾[4].

كما يجب أن نؤمن بأن هذه الكتب نزلت بالحق والنور والهدى وتوحيد الله سبحانه في ذاته وأفعاله وصفاته وأن ما نُسب إليها مما يخالف ذلك إنما هو من

---

(١) البقرة: ٢١٣.

(٢) المائدة: ٤٦.

(٣) المائدة: ٤٨.

(٤) الأعراف: ٤٠.

تحريف البشر قال تعالى عن التوراة: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ﴾[1]، وقال تعالى عن الإنجيل: ﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[2].

ويجب علينا أن نؤمن بأن القرآن العظيم هو آخر كتاب نزل من عند الله تعالى وأن الله ﷻ قد خصه بمزايا لم يخص بها جميع ما تقدمه من الكتب المنزلة من أهمها:

١ـ أنه تضمن خلاصة التعاليم الإلهية وجاء مؤيدًا ومصدقًا لما جاء في الكتب السابقة من توحيد الله وعبادته ووجوب طاعته؛ فقد جمع كل ما كان متفرقًا في تلك الكتب من الفضائل، وجعله الله مهيمنًا ورقيبًا يقر ما فيها من حق ويبين ما دخل عليها من تحريف وتغيير؛ قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ ﴾[3]، وأنه جاء بشريعة عامة للبشر فيها كل ما يحتاجون إليه ليصلوا إلى سعادتهم في الدنيا والآخرة، ونسخ بهذه الشريعة العامة جميع الشرائع العملية الخاصة بالأقوام السابقة وأثبت فيها الأحكام النهائية الخالدة الصالحة لكل زمان ومكان.

---

(١) المائدة الآية ٤٤.

(٢) المائدة الآية ٤٦.

(٣) المائدة الآية ٤٨.

٢ـ أن القرآن هو الكتاب الإلهي الوحيد الذي تكفل الله بحفظه؛ فقال ﷻ: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾[1].

وهذه مزية متفرعة عن مزية أخرى وهي أن القرآن أنزله الله على رسوله محمد ﷺ للناس كافة وليس خاصًّا بقوم معينين كما كانت تنزل الكتب السابقة؛ فكان حفظه من التحريف وصيانته من عبث الناس ليبقى ما فيه حجة الله على الناس قائمة حتى قيام الساعة.

وكل واحد من الكتب الأخرى خاطب أمة خاصة دون سائر الأمم.

والكتب الإلهية وإن اتفقت في أصل الدين إلا أن ما نزل فيها من الشرائع والأحكام كان خاصًّا بأزمنة معينة وأقوام معينين؛ قال تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ ﴾[2]، ولذلك لم يتعهد الله سبحانه بحفظ أي منها على مدى الأزمان كما هو الحال بالنسبة للقرآن، بل أخبر ﷻ في آخر كتبه عن التحريف الذي وقع على تلك الكتب؛ فعن التحريف والتغيير الذي أدخله اليهود على التوراة قال سبحانه: ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ

(١) الحجر الآية ٩.

(٢) المائدة الآية ٤٨.

يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[1]، وقال أيضًا: ﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴾[2].

وأما عن التحريف الذي أدخله النصارى على الإنجيل قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴾[3].

ومن التحريفات التي أدخلها اليهود والنصارى في دينهم ما زعمه اليهود من أن العُزَيْر ابن الله سبحانه، وما زعمه النصارى من أن المسيح ابن الله قال تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾[4]. فصحح لهم القرآن هذا الانحراف العقائدي الذي صنعوه

---

(١) البقرة الآية ٧٥.

(٢) النساء الآية ٤٦.

(٣)المائدة: ١٤-١٥.

(٤) التوبة الآية ٣٠.

بأنفسهم فبين لهم أن الله سبحانه منزه عن أن يكون له ولد فقال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾[1].

وقال أيضًا: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّآ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ ﴾[2]، جاء القرآن الكريم وبَيَّن هذا التحريف وبَيَّن العقيدة السليمة عن عيسى وأمه فقال تعالى: ﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝ ﴾[3].

والحق الذي لا شك فيه أنه لا يوجد اليوم على ظهر الأرض كتاب تصلح نسبته إلى الخالق تبارك وتعالى سوى القرآن الكريم ويدل على هذه الحقيقة ما يلي:

أـ أن الكتب التي نزلت قبل القرآن قد ضاعت نسخها الأصلية ولم يبق في أيدي الناس إلا تراجمها، أما القرآن فلا يزال محفوظًا بسوره وآياته وكلماته وحركاته كما تلاه جبريل على رسول الله ﷺ وكما تلاه رسول الله ﷺ على صحابته رضوان الله عليهم.

---

(١) سورة الإخلاص.

(٢) المائدة: ٧٣.

(٣) المائدة: ٧٥.

ب ـ أن هذه الكتب قد اختلط فيها كلام الله بكلام الناس؛ من تفسير وتاريخ وسير الأنبياء وتلاميذهم واستنباطات الفقهاء فلا يعرف فيها كلام الله من كلام البشر، وأما القرآن فهو جميعه كلام الله تعالى ولم يختلط به غيره من حديث الرسول ﷺ أو أقوال الصحابة أو غيرهم، ومما يدل بوضوح على أن القرآن ليس من قول رسول الله ولا اختلط به شيء من كلامه أنه من المعلوم أن كلام الإنسان يتشابه وليس في كلام النبي كلمة تشابه القرآن وتماثله بل نلمح ما بين الكلامين والأسلوبين فرقًا واضحًا.

جـ ـ أن تلك الكتب ليس منها كتاب تصح نسبته إلى الرسول الذي يُنسب إليه فليس لأي منها سند تاريخي موثوق فالأسفار الموجودة في العهد القديم إنما دونت بعد موسى عليه السلام بقرون عديدة.

وأما القرآن الكريم فهو الكتاب الوحيد الذي ثبتت نسبته بصورة قطعية إلى سيدنا محمد بوحي من الله تعالى قد نُقِل هذا الكتاب بسوره وآياته وحروفه وكيفية تلاوته إلى كل عصر جاء بعد عصر نزوله بالتواتر بحيث لا يشك مسلم في أن القرآن الذي نتلوه هو الذي نزله الله على رسوله الكريم ﷺ.

د ـ ومن الأدلة على وقوع التحريف في تلك الكتب تعدد نسخها واختلافها فيما تحويه وتتضمنه من العقائد الفاسدة والتصورات الباطلة عن الخالق سبحانه وعن رسله الكرام عليهم السلام؛ فإنك تجد فيها أن الله تعالى لا يرى ولا يعلم فيقول لآدم بعد أكله من الشجرة: «أين أنت يا آدم» ونجد أن نبي الله هارون

صنع عجلًا وعبده مع بني إسرائيل وأن إبراهيم ﷺ قدَّم امرأته سارة إلى فرعون حتى ينال الخير بسببها، ومن ذلك أن لوطًا ﷺ شرب خمرًا حتى سكر ثم قام على ابنتيه فزنى بهما الواحدة بعد الأخرى وأن داود ﷺ زنى بزوجة رجل من قواد جيشه ثم دبر حيلة لقتل الرجل فقتل، وغير ذلك من المفاسد والطعن في مكانة الأنبياء وشرفهم.

وإزاء هذا التحريف والتغيير الذي حدث للكتب السابقة فإن الإيمان بها يكون بالتصديق أنها من عند الله في أصلها نزلها على رسله لنفس الغرض الذي أنزل من أجله القرآن، ولا نؤمن بشيء من محتوياتها أنه من عند الله إلا بما ذكره القرآن أو الرسول ﷺ، وأما الإيمان بالقرآن الكريم فيجب علينا أن نؤمن بأنه كلام الله الخالص، وهو الحق وأن كل لفظ فيه محفوظ ويجب اتباع أمره واجتناب نهيه وتصديق خبره ورفض ما يخالفه وأنه آخر الكتب وأنه مهيمن على الكتب السابقة.



الفصل الرابع

الوحي

معناه وصوره

جاء الوحي في اللغة بمعاني الكتابة والإشارة والرسالة والإلهام والكلام الخفي، يقال: وَحَى إليه الكلام يَحِيه وحيًا أي كلَّمه بكلام خفي، وكذلك أوحى.. ويقال: وحى وأوحى بمعنى كتب.

وهذه المعاني اللغوية استخدمها القرآن في تعبيراته الشريفة الفصيحة، وعلى سبيل المثال:

-الإشارة

جاء الوحي بمعنى الإشارة في قوله تعالى: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾[1] وهذا النص جاء في الكلام على قصة زكريا عليه السلام فقد بلغ سِنًّا كبيرة ولم يُنْجِب فتحرك قلبه للولد فقام من الليل ودعا ربه أن يرزقه بنبي يرثه في النبوة ويقود بني إسرائيل من بعده على منهج الله فَبَشَّره الله بغلام اسمه يحيى فدعا الله أن يبين له علامة تدل على حمل امرأته تُعجل له

---

(١) مريم: ١١.

البشرى فأرشده الله إلى آية عجيبة وهي أن يحتبس لسانه عن الكلام لا يستطيعه ثلاثة أيام بلياليها، وزكريا نبي يتحمل أمانة التبليغ ويؤدي رسالة الله إلى قومه فلم ينقطع عن هذه المهمة ولم يتوقف عن البلاغ؛ ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ ﴾[1]. فكان يخرج على قومه من مصلاه ويشير إليهم بتسبيح الله أول النهار وآخره؛ فأوحى هنا بمعنى أشار إشارة خفيفة بسبب احتباس صوته، وهذا ما أكدته الآية الأخرى في سورة آل عمران: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَـٰرِ ﴿٤١﴾ ﴾[2] فمعنى قوله «إلا رمزًا» أي إشارة.

- الإلهام الفطري

جاء الوحي في القرآن بمعنى لغوي هو الإلهام الفطري الذي فطر الله تعالى الكائنات عليه وهيأها لممارسة وظائفها في هذا الكون، ويوضح هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا

---

(١) مريم: ١١.

(٢) آل عمران: ٤١.

﴿شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾[1]
فالإيحاء هنا هو الإلهام والهداية وتوجيه هذا النوع إلى اتخاذ أسباب بقائه وأدائه لعمله بفطرة وغريزة.

- الإلهام الإلهي

من المعاني اللغوية التي جاءت في القرآن لكلمة الوحي: الإلهام الإلهي؛ بمعنى ما يقذفه الله في قلوب عباده الصالحين مما يتعلق بطرق الخير وصنائع المعروف، وقد جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[2].

لقد ألقى الله في قلب أم موسى فعل هذه الأشياء ووجهها إلى هذا السلوك عندما كان رجال فرعون يبحثون عن ذكور بني إسرائيل ليقتلوهم وبشرها الله بعودته إليها سالمًا رسولًا.

- الوسوسة

من المعاني اللغوية التي جاء بها لفظ الوحي في البيان القرآني: الوسوسة؛ بمعنى إلقاء الشيطان في النفس، وخداع الإنسان عن الحق والخير.

---

(١) النحل: ٦٨-٦٩.

(٢) القصص: ٧.

ومن مواضع ذلك الاستعمال قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾[1].

فالشيطان هو المتمرد الفاسق سواء كان من الجن أو الإنس، فكلاهما يحارب دعوة الحق، يلقي الشبهة ويثير الفتنة ويصد عن سبيل الله.

والتقاء شياطين الإنس مع شياطين الجن على هذا الهدف إنما يكون بزخرف القول الذي يغتر به سامعه من الجهلاء والأغبياء؛ فيلقون في النفس عن طريق الوسوسة ما يصرف عن الخير وما ينفر من الحق والفضائل.

المعنى الشرعي للوحي

الوحي صلة بين الرب تبارك وتعالى ومن يصطفيه من خلقه ليتحمل أمانة التبليغ عن الخالق إلى خلقه.

وأكثر ما وردت كلمة «وحي» في القرآن بمعنى إخبار وإعلام الله من اصطفاه من عباده كل ما أراد إطلاعه عليه من أنواع العقائد والأحكام الشرعية وألوان الهداية بطريقة خفية غير معتادة لبني الإنسان.

* * *

---

(١) الأنعام: ١١٢.

للوحي صور وأنواع جمعتها الآية الكريمة: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ۝ ﴾[1].

وتتحدث الآية هنا عن الوحي بمعنى التلقي عن الله تعالى مطلقًا سواء كان للأنبياء أو للأولياء أو لغيرهم.

وهذا التلقي له صور متعددة:

الصورة الأولى: قوله تعالى: (إلا وحيًا).

والمقصود بالوحي هنا الإلقاء في القلب بكلام خفي يدرك بسرعة، وهو المسمى إلهامًا، وقد يقع يقظة وقد يقع منامًا.

فالإلقاء في اليقظة جاء في قوله جل شأنه: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[2].

وقد فسر الإمام ابن الجوزي قوله تعالى (إلا وحيًا) بأنه الوحي في المنام.

---

(١)الشورى: ٥١.

(٢) القصص: ٧.

والإلقاء في النوم هو المعبر عنه بالرؤيا الصالحة، ورؤيا الأنبياء حق، وقد حكى القرآن ذلك عن سيدنا إبراهيم في قوله تعالى: ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ۝ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ۝ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[1].

الصورة الثانية من الوحي: (من وراء حجاب).

هذه الصورة تعني أن كلام الله تعالى يصل مسموعًا إلى النبي دون رؤية للذات الإلهية فالنبي يسمع مباشرة دون واسطة.

وقد قص القرآن المجيد نموذجًا لذلك في قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝

(١) الصافات: ١٠١ – ١٠٧.

قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِى وَبِكَلَـٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾[1].

- فإن موسى عليه السلام كلمه ربه وتلقى وحيه من وراء حجاب فسمع الكلام الموحى به ولم تتحقق له رؤية الذات الإلهية.

وقد وقعت هذه الصورة من الوحي لسيدنا محمد ﷺ ليلة الإسراء والمعراج حيث فرضت الصلاة على المسلمين من خلال مناجاة قدسية ناجى فيها سيدنا محمد ﷺ ربه تبارك وتعالى.

وقد اختلف أهل السنة في رؤية النبي لربه في ليلة الإسراء والمعراج على رأيين:

الرأي الأول: على رأس القائلين به السيدة عائشة رضي الله عنها فقالت: من زعم أن محمدًا ﷺ رأى ربه فقد أعظم على الله الفِرْية.

والرأي الآخر: على رأس القائلين به عبدالله بن عباس فقد أثبت رؤية النبي ﷺ لربه، وليس في هذه المسألة رأي قاطع، والأرجح هو رأي السيدة عائشة رضي الله عنها.

الصورة الثالثة من الوحي: «أو يرسل رسولًا»

رسول الوحي هو الملك جبريل عليه السلام فهو المخصص للتبليغ عن الله؛ فهو السفير بين الله تعالى ورسله وأنبيائه.

---

(١) الأعراف: ١٤٣-١٤٤.

وقد ذكر القرآن الكريم ملك الوحي بتعبيرات مختلفة؛ فصرح باسمه في بعضها وذكره بأوصاف جليلة تليق بمهمته المقدسة في بعضها الآخر؛ فمن المواضع التي صرحت باسمه قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾[1].

وقد جاءت أحاديث كثيرة فيها ذكر اسم جبريل عليه السلام منها الحديث المشهور الذي رواه عمر بن الخطاب رضي الله عنه بشأن السائل الذي جلس إلى النبي ﷺ وأخذ يسأله عن الإسلام والإيمان والإحسان والساعة وأشراطها ثم انطلق فقال الرسول ﷺ عقب ذلك: «**إنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم**».

وفي حديث آخر صحيح قال عليه الصلاة والسلام: «**ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه**».

* * *

---

(١) البقرة: ٩٧- ٩٨.

وصف القرآن المجيد ملك الوحي جبريل ﷺ بأوصاف تليق بمهمته المقدسة وتتناسب مع مكانته بين الملائكة، وتظهر هذه الأوصاف من خلال هذه النصوص القرآنية التالية:

١ـ قال الله تعالى: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾[1].

فقد وصفت الآية جبريل الذي نزل بالقرآن على قلب رسول الله بأنه (روح القدس).

والقدس- بسكون الدال وضمها- الطهر، وإضافة الروح إلى القدس من إضافة الموصوف إلى صفته كما يقال حاتم الجواد وزيد العلم، والمراد الروح المقدس كما يراد حاتم الجواد وزيد العالم.

٢ـ قال الله جل شأنه: ﴿ فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾[2]

والمعنى أن الله تعالى أرسل إلى مريم العذراء جبريل ﷺ ليطمئن فؤادها ويعلمها مسبقًا بما اختصها الله به من ولادة عيسى بدون أب.

---

(١) النحل: ١٠١-١٠٢.

(٢) مريم: ١٧.

فتمثل لها جبريل بشرًا سويًا لتأنس بحديثه إذ لو رأته على صورته الملائكية لأصابها الفزع.

والإضافة في قوله «روحنا» للتشريف كما هي في قوله تعالى ﴿ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ ﴾[1] وقوله ﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ ﴾[2].

والإضافة التي تدل على التشريف تعلي من قدر المضاف إلى الله جل جلاله.

فجبريل ﷺ روح لأنه مجرد عن المادة المعروفة لنا.

كما أن إطلاق لفظ الروح على جبريل ﷺ لما يترتب على عمله من حياة القلوب والعقول بوحي الله وإصلاح الأفراد والجماعات بشرائع الله، وفي هذا الإطار وُصف القرآن الكريم بأنه روح في قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ ﴾[3].

فجبريل ﷺ هو روح القدس لأنه مطهر من الآثام والشهوات؛ فهو ملك مقرب وهو روح الله شرَّفه الله بحمل أمانة الوحي إلى المرسلين.

---

(١) الأعراف: ٧٣.

(٢) الحج: ٢٦.

(٣) الشورى: ٥٢.

٣ـ قال الله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾[1].

وصف جبريل عليه السلام هنا بأنه الروح الأمين لأدائه أمانة التنزيل بلا زيادة أو نقص أو تحريف أو تبديل.

ووصف جبريل فيما سبق بالقدس وهنا بالأمين ليجمع الحُسْنَين؛ فهو طاهر في ذاته مبرأ من الذنوب والإثم، وأمين فيما يؤديه من عمل وما يتحمله من رسالة.

٤ـ قال الله تعالى: ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴾[2].

فيقسم الله تعالى بالنجوم على تزكية رسول الله ﷺ في عقله ومنطقه وفي ذاته وسلوكه وأنه مقيم على الحق مستمسك به.

وهذا الحق الذي يتحمل أمانته الرسول ﷺ هو وحي كريم جاء به إليه ملك له من القدرة والقوة ما يمكنه من أداء مهمته، وهو «ذو مرة» أي منظر حسن بديع أو تأكيد لشدة القوة.

---

(١) الشعراء: ١٩٢-١٩٥.

(٢) النجم: ١-٦.

- فقد وصف جبريل في هذه الآيات الكريمات بالقوة والجمال وهما صفتان ضروريتان للمهمة التي يقوم بها؛ فالقوة لحمل الرسالة وتوصيلها للرسول، والجمال لحسن اللقاء وجاذبية القلب لتلك الرسالة المقدسة.

٥- قال الله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۞ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۞ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ۞ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ۞ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ۞ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ۞ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ۞ ﴾[1].

تخبرنا الآيات أن الله تعالى خالق الكون وما فيه من نجوم وكواكب هو الذي أوحى آيات القرآن، وقام بالوحي ملك اصطفاه الله بهي الطلعة حسن الخلقة له قوة تتناسب مع عظم الرسالة التي يبلغها، وله مكانة رفيعة ومنزلة سامية لدى المولى سبحانه، وله سيادة على عالم الملائكة؛ إذ هو المقدم في الملائكة فقد اجتمعت له من المؤهلات ما يجعله أمينًا فيما يبلغه عن ربه.

وكلمة «ثَمَّ» تدل على أن جبريل مطاع في الملائكة المقربين ينفذون أمره ويرجعون إليه.

ومما يؤكد السيادة لجبريل في عالم الملائكة قول رسول الله ﷺ: «**إن الله تعالى إذا أحب عبدًا دعا جبريل فقال: إني أحب فلانًا فأحبه فيحبه جبريل ثم ينادي في السماء فيقول: إن الله يحب فلانًا فأحبوه فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول في**

(١) التكوير: ١٥-٢٥.

الأرض، وإذا أبغض عبدًا دعا جبريل فيقول: إني أبغض فلانًا فأبغضه فيبغضه جبريل ثم ينادي في أهل السماء إن الله يبغض فلانًا فأبغضوه ثم توضع له البغضاء في الأرض»[1].

* * *

(١) رواه مسلم.

صفة مجيء ملك الوحي إلى الرسول

دلت النصوص الشرعية على أن ملك الوحي له ثلاثة أحوال:

الأول: أن يراه الرسول ﷺ على صورته التي خلقه الله عليها، ولم يحدث هذا للرسول ﷺ إلا مرتين.

الثاني: أن يأتيه الوحي في مثل صلصلة الجرس فيذهب عنه وقد وعى عنه الرسول ﷺ ما قال.

الثالث: أن يتمثل له الملك رجلًا فيكلِّمه ويخاطبه ويفهم عنه قوله، وهذه أخف الأحوال على الرسول ﷺ، وقد حدث هذا من جبريل عندما التقى بالرسول لأول مرة في غار حراء.



الفصل الخامس

ما يجب في حق الرسل عليهم السلام

والمراد بالوجوب هنا من حيث الشرع لا العقل؛ إذ إن النبي من حيث العقل يجوز صدور المعصية عنه كما يجوز صدورها عن أمته، ودليل صحة الجواز قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾[1] وقوله: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾[2] لكن الله تعالى قد عصمهم ظاهرًا وباطنًا من فعل المنهي عنه مطلقًا فصار الجائز عقلًا مستحيلًا شرعًا.

١ـ الأمانة

أي: العصمة، وهي لغة بمعنى المنع والوقاية يقال: عصم: أي منع ووقى قال تعالى: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾[3] وقال: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾[4] أي: من يمتنع بلطفه من المعاصي.

---

(١) الكهف: ١١٠.

(٢) الإسراء: ٧٤.

(٣) هود: ٤٣.

(٤) آل عمران: ١٠١.

وللعلماء فيها عدة تعاريف لكنها متقاربة منها: (حفظ الله تعالى إياهم بما خصهم به من صفاء الجوهر ثم بما أولاهم من الفضائل النفسية والجسمية ثم بالنصرة وتثبيت أقدامهم ثم بإنزال السكينة عليهم وبحفظ قلوبهم وبالتوفيق).

قال الشيخ محمد الحامد: يكفينا أن نعرف العصمة بأنها ملكة يخلقها الله في العبد تحمله على فعل الخير وتمنعه من فعل الشر دون أن يفقد اختياره.

وعند الجرجاني: (العصمة ملكة اجتناب المعاصي مع التمكن منها).

وأحسن التعريفات: العصمة ملكة نفسانية تمنع صاحبها الفجور) فتكون الأمانة على هذا هي حفظ ظواهرهم وبواطنهم- عليهم الصلاة والسلام- من التلبس بمنهي عنه ولو نهي كراهة أو خلاف أولى؛ فأفعالهم تدور بين الواجب والمندوب.

قال الشيخ محمد الحامد- رحمه الله-: (الطعن في عصمة الأنبياء ضلال وبدعة وعقوق وسوء أدب يأخذ الله القائلين به أخذًا شديدًا؛ فإن الأنبياء صفوة الله من خلقه ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾[1] فالعصمة أمر محقق ولا شبهة فيه.

وعن صفة الأمانة يقول الشيخ الندوي: كل نبي يبعث يؤكد في أمته أمانته وإخلاصه فنوح ﷺ قال لقومه: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾[2] وهود وصالح ولوط وشعيب كل قال لقومه: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ فالأمانة كلمة جامعة بين معاني

---

(١) الأنعام: ١٢٤.

(٢) الشعراء: ١٠٧.

الصدق وصحة التلقي وصحة الإلقاء إلى الأمة، وهي الركن الأساسي في مفهوم النبوة والرسالة، وقد كان في العصمة التي اتصف بها الأنبياء ضمان لسلامة أتباعهم وأمتهم في العقائد والشرائع.

وجوب العصمة قبل النبوة

هذا وقد اختلف في وقت وجوب هذه العصمة لهم- عليهم الصلاة والسلام- فذهب بعضهم إلى أنها واجبة لهم من أول الولادة إلى آخر العمر.

قال رسول الله ﷺ: «**ما هممت بشيء مما يهم به أهل الجاهلية إلا مرتين عصمني الله فيهما؛ قلت ليلة لفتى من قريش: أبصر لي غنمي حتى أسمر هذه الليلة بمكة كما تسمر الفتيان، قال: نعم قال: فدخلت حتى جئت أول دار من دور مكة فسمعت غناء وعزفًا وصوت دفوف ومزامير فقلت: ما هذا؟ فقالوا: فلان تزوج فلانة فجلست لذلك؛ فضرب الله على أذني فنمت فما أيقظني إلا مس الشمس فرجعت إلى صاحبي ثم فعلت ليلة أخرى مثل ذلك فنمت فو الله ما هممت بعدها بشيء حتى أكرمني الله بنبوته**»[1].

وذهب البعض الآخر إلى أنها تجب لهم في زمن النبوة.

وقال البغدادي في (أصول الدين): «**أجمع أصحابنا على وجوب كون الأنبياء معصومين بعد النبوة عن الذنوب كلها**».

---

(١) رواه الحافظ الذهبي والطبري والبيهقي.

ما يتوهم صدوره من الأنبياء ينحصر في أمور هي الشرك والكذب وباقي أفراد الكبائر والصغائر؛ أما الشرك فيستحيل صدوره من الأنبياء سواء قبل البعثة وبعدها عمدًا أو سهوًا، والدليل على ذلك إجماع أهل الشرائع والأديان على وجوب عصمة الأنبياء منه مطلقًا.

ومما يستدل به على تنزيههم عن الشرك والكفر قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ ﴾[1] أي: عهدهم بتبليغ الرسالة والدعوة إلى التوحيد.

أما قوله تعالى: ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾[2] فهو خطاب للنبي ﷺ والمراد أمته، أو هو على سبيل الفرض والتقدير كما تفرض المستحيل في مقام التقدير.

وقال الإمام النووي: قال القاضي عياض: «لا خلاف أن الكفر عليهم بعد النبوة ليس بجائز بل هم معصومون منه كذلك قبلها».

وأما الكذب فيستحيل صدوره عمدًا فيما دلت المعجزة على صدقهم فيه كدعوى الرسالة وتبليغ الأحكام قبل البعثة وبعدها، والدليل إجماع أهل الأديان على ذلك، أما صدوره سهوًا فالأكثر من علماء التوحيد على عصمتهم منه، وهو الحق الذي يجب اعتقاده؛ لأنه لو جاز الكذب في دعوى الرسالة وتبليغ الأحكام

---

(١) الأحزاب: ٧.

(٢) الزمر: ٦٥.

ولو سهوًا لفقدت الثقة فيما جاءوا به وتطرق إليه احتمال الكذب ويفوت بذلك الغرض المقصود من إرسالهم وبعثتهم.

وأما باقي الكبائر من قتل وزِنًا وغيره فقد أجمع العلماء على عصمة الرسل من تعمدها بعد البعثة مطلقًا سواء أشعرت بخسة ودناءة كالسرقة والزنا أو لا كالقتل، وأما صدورها سهوًا بعد البعثة فالمحققون من علماء التوحيد على منعه لأنه لو جاز عليهم فعل الكبيرة ولو سهوًا أو خطأ في التأويل لزم أن تكون تلك الكبيرة مأمورًا بفعلها لأن الله تعالى أمرنا بالاقتداء بهم في أقوالهم وأفعالهم إلا فيما ثبت اختصاصهم به فلو صدر عنهم فعل الكبيرة ولو سهوًا لكان فعلها طاعة مأمورًا به مع كونها من الفحشاء، والله تعالى يقول: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾[1] فيكون فعلها مأمورًا به غير مأمور به في وقت واحد وهو محال.

أما صدورها قبل البعثة فإن كان موجبًا للنفور منهم كالفجور بالأمهات أو مشعرًا بالخسة كالسرقة فهو ممنوع بإجماع علماء التوحيد، وإن كان غير ذلك كالقتل فقد جوَّز صدوره علماء التوحيد كما حدث مع سيدنا موسى، وبعضهم منع صدور الكبيرة قبل البعثة مطلقًا كما منعها بعد البعثة وهو الظاهر.

وأما الصغائر فما كان مشعرًا بخسة كسرقة لقمة أو تطفيف حبة فيستحيل صدوره منهم عمدًا وسهوًا قبل البعثة وبعدها؛ لأن صدورها يوجب التنفير من

---

(١) الأعراف: ٢٨.

اتباعهم وما لم يكن مشعرًا بخسة كنظره لأجنبية فالتحقيق أنهم معصومون من تعمده بعد البعثة لا من صدوره نسيانًا، وأما صدوره قبل البعثة عمدًا أو سهوًا فلم يقم دليل على منعه، وكذلك الأنبياء معصومون عن تكرار الصغائر وكثرتها إذ يجعلها ذلك من الكبائر لأن من جملة الكبائر الإصرار على الصغائر.

الشبه الواردة على عصمة الأنبياء

هناك آيات وردت في كتاب الله تعالى حاكية لما وقع من بعض الرسل وكانت بظاهرها توهم صدور ذنب منهم، ونوفق بين المستفاد منها وبين ذلك الذي قام عليه الإجماع أو قضى به الدليل العقلي من صفات الرسل عليهم السلام.

* * *

ما ورد في حق آدم عليه السلام

قال الله تعالى: ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ

هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ﴾[2]. وقال تعالى حكاية عن آدم وحواء: ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾[3].

هذه الآيات بحسب ظاهرها تفيد أن الله سبحانه وتعالى نهى آدم عن الأكل من شجرة معينة وأن آدم أكل منها بعد النهي الموجه إليه من الله، كما تفيد أن آدم اعترف بخطيئته وكذلك حواء وأنهما طلبا من الله المغفرة فأرشدهما إلى طريق التوبة فتابا فتاب الله عليهما؛ فالذنب واضح في خروج آدم على نهي الله له بأن أكل من الشجرة، ولذلك صرح آدم مع زوجه بأنهما ظلما أنفسهما وطلبا المغفرة من الله، وصرح الله سبحانه وتعالى في آية أخرى بأن آدم عصى ربه، ولأجل أن يتفق ما يستفاد من الآيات المذكورة مع ما ثبت بالعقل نقول إن آدم ارتكب ذنبًا لكنه كان قبل البعثة لأنه ارتكبه قبل أن يكون له ولد يرسل إليه وكان ناسيًا ذلك العهد الذي قد أُخذ عليه لقوله تعالى في حق آدم ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ ﴾[4] فضلًا عن

* * *

(١) البقرة: ٣٥-٣٧.

(٢) طه: ١٢١.

(٣) الأعراف: ٢٣.

(٤) طه: ١١٥.

ذلك فهذا الذنب من الصغائر، وتعظيم الله تعالى لذلك الذنب واستعظام آدم له نظرًا إلى علو شأنه ومزيد فضل الله تعالى عليه وإحسانه، ومخالفة الحبيب على الحبيب شديدة، وصدور الصغيرة خصوصًا إذا كانت قبل البعثة مما لا يقدح في عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

ما ورد في حق سيدنا إبراهيم عليه السلام

قال الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾[1].

ربما يفهم من لم يعرف صفات الأنبياء ومنزلتهم من ظاهر هذه الآيات أن إبراهيم عليه السلام اعتقد ألوهية الكوكب، ولما رآه قد غاب بعد أن كان ظاهرًا ومضيئًا رجع عن اعتقاد ألوهيته فلما ظهر القمر ورأى حجمه أكبر من حجم الكوكب وضوءه أكمل اعتقد ألوهيته فلما غاب رجع عن اعتقاده؛ فلما طلعت الشمس ورآها أكبر من الكواكب التي رآها وأقوى منها ضوءًا اعتقد ألوهيتها فلما غابت تبرأ من الشرك واعتقد أن المعبود بحق هو الله سبحانه وتعالى.

---

(١) الأنعام: ٧٦.

ولما كان فهم الآية على هذا المعنى ينافي ما أجمع عليه أهل الشرائع والأديان من استحالة الشرك على الأنبياء قبل البعثة وبعدها عمدًا وسهوًا وجب صرف الآية عن ذلك الظاهر والعدول إلى طريق آخر يوافق العقل؛ لذلك نقول: إن من طرق إبطال قول المخالف لك أن تتظاهر له بأنك تسلِّم ما يقوله (وفي الواقع أنت لا تعتقد ولا تسلم له ما يدعيه) ثم تبين له ما يترتب على قوله من المفاسد أو ما يمنع من الاعتقاد به، وربما كان ذلك الطريق من أقرب الطرق إلى إقناع الخصم وإلزامه الحجة.

وهذا الطريق هو الذي سلكه سيدنا إبراهيم ﷺ مع قومه فكأنه قال لهم: سلمت لكم على سبيل الافتراض أن الكوكب أو القمر أو الشمس إله ولكن قضى العقل بأن الإله ليس من جنس الأشياء الحادثة فلا يتغير ولا يوصف بالانتقال من مكان إلى مكان ولا بالظهور ثم الخفاء، وهذه الكواكب قد اتصفت بذلك فلا تصلح أن تكون آلهة.

وبفهم الآية على هذا الوجه لا تكون دالة على صدور الشرك من إبراهيم بل تدل على أنه ينهى قومه عن الشرك ويطالبهم بالتوحيد وقصر المعبودية على الله سبحانه وتعالى وحده.

وقال الله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ ۝ فَجَعَلَهُمۡ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمۡ لَعَلَّهُمۡ إِلَيۡهِ يَرۡجِعُونَ ﴾[1]

حكايةً لما وقع من إبراهيم عليه السلام وحاصله أنه أقسم بالله ليجتهدن في كسر هذه الأصنام بعد الانتهاء من عبادة قومه لها وخروجهم إلى عيدهم فلما خرجوا إلى عيدهم توجه إبراهيم إلى الأصنام ومعه فأس فأخذ في تكسير جميع الأصنام فجعلها قطعًا ما عدا الصنم الكبير فإنه تركه ولم يتعرض له، وقد فعل ذلك حتى إذا جادلوه لمعرفة كاسر الأصنام أثبت لهم أن الأصنام لا تضر ولا تنفع ولو كانت تضر أو تنفع لأمكن لذلك الصنم الكبير أن يدفع الضرر عن غيره.

فهذا المستفاد صريح في أن الله أخبر بأن الذي كسر الأصنام هو إبراهيم عليه السلام.

ثم قال تعالى حكاية لما دار بين قوم إبراهيم وبينه: ﴿ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ۝ قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴾[2] ظاهر هذه الآية أن قوم إبراهيم لما سألوه عن الفاعل لكسر الأصنام أجابهم بأن الذي كسر الأصنام هو الصنم الكبير، وبناء على ذلك الظاهر يكون إخبار إبراهيم بأن الفاعل هو الصنم الكبير غير مطابق للواقع لأن

---

(١) الأنبياء: ٥٧-٥٨.

(٢)الأنبياء: ٦٢-٦٣.

الله تعالى قد أخبر بأن الذي جعل الأصنام قطعًا هو إبراهيم ﷺ فيكون كاذبًا في ذلك الإخبار، والعقل قضى باستحالة الكذب على الأنبياء.

ويجاب عن ذلك بأن إخبار إبراهيم ليس بكذب لأنه لم يقصد نسبة الفعل الصادر عنه إلى الصنم وإنما قصد إثباته لنفسه مع الإشارة إلى أن الصنم لا يضر ولا ينفع، وهذا له نظير في المخاطبات العادية مثلًا إذا كتب شخص خطابًا بخط جميل وكان مشهورًا بأنه يجيد الكتابة فقال له رجل أمي أو كاتب إلا أن خطه ليس بحسن: أأنت كتبت هذا؟ فأجابه بقوله: بل كتبته أنت؛ فإن غرض المجيب إثبات أنه كتب مع الاستهزاء بالسائل.

ولأن كل القوم ما عدا إبراهيم يعبدون الأصنام ويعظمونها فلا يمكن لأحد منهم أن يعتدي عليها فيكون غرض إبراهيم من قوله: ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ ﴾[1] الاستهزاء بذلك الصنم الكبير وإثبات أنه هو الذي كسرها؛ لأنه هو الذي يقدر على ذلك؛ ولذلك كان وقت نطقه بهذا الجواب قد علق الفأس في عنقه ليكون ذلك دليلًا على ما يريد، وقال الله تبارك وتعالى حكاية لما وقع من إبراهيم ﷺ ﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴾ ﴿٩٠﴾[2].

---

(١) الأنبياء: ٦٣.

(٢) الصافات: ٨٨-٩٠.

روي أن قوم إبراهيم عليه السلام كانوا يعظمون الكواكب ويعتقدون أنها مصدر الخير والشر ويتخذون لكل كوكب منها هيكلًا ويجعلون فيه أصنامًا تناسب ذلك الكوكب بزعمهم، ويجعلون عبادتها وتعظيمها وسيلة إلى عبادة تلك الكواكب فجاء يوم عيد لهم وكانوا يخرجون فيه فأرسل ملكهم إلى إبراهيم عليه السلام يقول له: إن غدًا عيدنا فاحضر معنا.

فأراد أن يعتذر عن الحضور على وجه لا ينكرونه عليه فنظر نظرة في النجوم أي تأمل نوعًا من التأمل كتأمل وتفكر الصديقين والصالحين في خلق السموات والأرض فقال له: إني سقيم أي مصاب بسقم وهو كان بالفعل سقيمًا، وسقمه نفسي من تماديهم في الضلال كما قال تعالى في حق سيدنا محمد ﷺ: ﴿ **فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا** ﴾[1] فقد أوهم إبراهيم أنه سقيم الجسم على ما كانوا يعتقدون من تأثير الكواكب في الأجسام وهو في الوقت نفسه سقيم النفس، وذلك من المعاريض التي يجوز فيها الكذب، ولقد جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات: قوله حين دعي إلى آلهتهم فقال: «إني سقيم» وقوله: «بل فعله كبيرهم هذا» وقوله لسارة: «يا أختي»**»[2].

---

(١) الكهف: ٦.

(٢) رواه الإمام أحمد، وهو على شرط الصحيح.

والحق أن هذا ليس من باب الكذب الحقيقي الذي يُذم فاعله، وإنما أطلق على هذا كذب تجوزًا وقد فسرنا المقصود بقول سيدنا إبراهيم: «إني سقيم» وقوله: «**بل فعله كبيرهم هذا**».

وأما قوله: «**هي أختي**» عن زوجته فيقصد أنها أخته في دين الله.

فكما جاء في الحديث عن أبي هريرة «بينما هو ذات يوم وسارة إذ أتى على جبار من الجبابرة فقيل له: إن هاهنا رجلًا معه امرأة من أحسن الناس فأرسل إليه وسأله عنها؛ فقال: من هذه؟ قال: أختي، فأتى سارة، فقال: يا سارة ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك وإن هذا سألني فأخبرته أنك أختي فلا تكذبيني... الحديث»[1].

* * *

ما ورد في حق موسى عليه السلام

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ **وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ۝ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ**

(١) رواه البخاري بتمامه.

﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[1]. تفيد هذه الآيات أن موسى ﷺ دخل المدينة في وقت لم يكن دخوله متوقعًا فيه فوجد فيها رجلين يتحاربان أحدهما من الطائفة التي شايعته في الدين وهي بنو إسرائيل والآخر من مخالفيه في الدين وهم القبط؛ فطلب مَنْ كان من شيعته من موسى أن ينصره على عدوه فضرب موسى القبطي بكفه المضمومة أصابعها فقتل الرجل؛ فقال موسى: هذا من عمل الشيطان وتزيينه إنه عدو ظاهر العداوة يسعى في إضلال غيره، ثم قال بعد ذلك: ربي إني ظلمت نفسي بذلك العمل الذي ترتب عليه القتل فاغفر لي ذنبي؛ فغفر الله له؛ هذا هو ما تفيده الآيات إجمالًا؛ فتعبير موسى بأنه ظلم نفسه وطلبه المغفرة من الله يدل على أنه ارتكب ذنبًا، وهذا بظاهره ينافي ثبوت العصمة للأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ولكن صريح الآية يفيد أن الذي حصل من موسى هو الوكز وهو الضرب بالكف مجموعة الأصابع وهو من الصغائر، والقتل ترتب على هذا الوكز ولم يكن مقصودًا بل كان من قبيل الخطأ، وارتكاب الصغائر التي لا تشعر بالخسة لا يخل بالعصمة، وكان ذلك أيضًا قبل البعثة بدليل قوله: ﴿ فَفَرَرۡتُ مِنكُمۡ لَمَّا خِفۡتُكُمۡ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكۡمٗا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾[2]. وإنما ندم

---

(١) القصص: ١٥.

(٢) الشعراء: ٢١.

موسى بعد أن وقع منه الوكز، وقال: (إني ظلمت نفسي) لأنه ظهر له أن دفع الظلم قد يكون بغير الوكز، فلم يكن الوكز هو الطريق الوحيد لدفع ظلم ذلك المعتدي.

وعلى هذا البيان لا يكون في الآية ما يؤخذ منه أن موسى ارتكب ما يخل بالعصمة.

* * *

ما ورد في حق يوسف عليه السلام

قال الله تبارك وتعالى حاكيًا لما وقع من يوسف ومن امرأة العزيز: ﴿ **وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ** ﴾[1] قبل بيان معنى الآية يجب معرفة ما يجري في النفس وما يدخل منه تحت التكليف وما لا يدخل.

فالذي يجري في النفس خمس مراتب: **الهاجس**، وهو ما يلقى في النفس ولا يجول فيها، **الخاطر**، وهو ما يلقى في النفس ويجول فيها، **حديث النفس**، وهو تردد النفس بين فعل الخاطر وتركه، **الهم**، وهو توجه النفس نحو الفعل والميل إليه، **العزم والتصميم على الفعل**.

وجميع هذه المراتب لا يتناولها التكليف ولا مؤاخذة فيها إلا المرتبة الأخيرة، وهو العزم والتصميم؛ فالهم حينئذ لا مؤاخذة فيه ولا يعد من الذنوب أصلًا إن كان نحو معصية؛ قال ﷺ: «**ومن هم بسيئة ولم يعملها لم تكتب عليه**».

يقول بعض المفسرين: الهم نوعان: هم ثابت معه عزم وعقد ورضا، وهو مذموم مؤاخذ به صاحبه.

---

(١) يوسف: ٢٤.

وهم بمعنى خاطر وحديث نفس من غير تصميم وهو غير مؤاخذ به صاحبه؛ لأن خطور المعاصي المنهي عنها في الصدور وتصورها في الأذهان لا مؤاخذة به ما لم توجد في الواقع؛ عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسنا ما لم تتكلم به أو تعمل به**»[1].

وقد أجمع العلماء على أن هم امرأة العزيز بيوسف كان همًّا بمعصية وكان مقرونًا بالعزم والقصد بدليل قوله تعالى: ﴿ **وَرَاوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ** ﴾[2].

كما أجمعوا على أن يوسف عليه السلام لم يأتِ بفاحشة وإنما كان همه مجرد خاطرة قلب بمقتضى الطبيعة البشرية بدون عزم وقصد.

وحينئذ فالآية تفيد أن يوسف قد توجهت نفسه نحو مخالطتها ومالت نحوها بمقتضى الطبيعة البشرية كميل الصائم في اليوم الحار إلى الماء البارد ولكن منعه من الجري وراء ما اقتضته الطبيعة البشرية من الانتقال من الهم إلى العزم أنه رأى برهان ربه وهو ما غرسه الله تعالى في قلبه من العلم- المصحوب بالعمل- بأن هذا الفعل الذي دعته إليه امرأة العزيز قبيح ولا يليق به، ولذلك يقول الله تعالى:

---

(١) رواه الشيخان.

(٢) يوسف: ٢٣.

﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَ ﴾[1] السوء هو خيانة العزيز أمير مصر، والفحشاء هي الزنا ﴿ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴾[2] الذين أخلصهم الله تعالى واختارهم لطاعته.

وهذا هو الحق في هذه النقطة فلا تلتفت إلى ما يقوله القصاصون في هذه الحادثة فهو من الأباطيل ولم ينقل من أدلة يعتمد عليها.

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾[3].ظاهر الآية يفيد أن إخوة يوسف نسبوا إليه السرقة ولم ينفها يوسف عن نفسه، ومعلوم أنها من الكبائر المشعرة بخسة، وهذا النوع أجمع علماء التوحيد على عصمة الأنبياء منه عمدًا وسهوًا قبل البعثة وبعدها، ولكن ذلك الذي نسبه إخوة يوسف إليه يحتمل أن يكونوا كاذبين فيه وفي الواقع لم يسرق،

---

(١)يوسف: ٢٤.

(٢) يوسف: ٢٤.

(٣) يوسف: ٧٧.

ويشير إلى ذلك قوله: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾[1] وصدور الكذب منهم جائز عقلًا لأن الرأي الراجح أنهم ليسوا أنبياء.

ويحتمل أن يكون قد حدث أمر سموه سرقة وفي الواقع ليس بسرقة؛ فقد ذكرت كتب التفسير عن مجاهد أنه قال: كان أول ما دخل على يوسف ﷺ في البلاء فيما بلغني أن عمته كانت تحضنه، وكانت أكبر ولد إسحاق ﷺ وكانت إليها منطقة[2] أبيها، وكانوا يتوارثونها بالكبر فكانت لا تحب أحدًا كحبها ليوسف حتى إذا ترعرع[3] وقعت نفس يعقوب إليه؛ فقال: يا أختاه سلمي إليّ يوسف فوالله ما أقدر أن يغيب عني ساعة فقالت: والله ما أنا بتاركته فدعه عندي أيامًا أنظر إليه لعل ذلك يسليني فلما خرج يعقوب ﷺ من عندها عمدت إلى تلك المنطقة فحزمتها على يوسف ﷺ من تحت ثيابه؛ ثم قالت: فقدت منطقة أبي إسحاق فانظروا من أخذها فالتمست ثم قالت: اكشفوا أهل البيت فكشفوهم فوجدوها مع يوسف ﷺ فقالت: والله إنه لسلم لي أصنع فيه ما شئت فأتاها يعقوب فأخبرته الخبر؛ فقال لها: أنت وذاك إن كان فعله فأمسكيه فما قدر عليه حتى ماتت اهـ.

---

(١) يوسف: ٧٧.

(٢) المِنطقة: كل ما شُدَّ به الوَسَط (كالحِزام).

(٣) ترعرع: نما وكَبِر.

فهذا المروي صريح في أن يوسف لم يسرق، وسماه إخوته سارقًا باعتبار ما اشتهر بين الناس؛ وإلا فهم كاذبون في نسبة السرقة إليه؛ فالآية حينئذ لم تدل على أن يوسف قد ارتكب جريمة السرقة.

* * *

ما ورد في سيدنا داود عليه السلام

قال تبارك تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ يَا دَاوُودُ ﴿٢٥﴾ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾[1]

---

(١) ص: ٢١-٢٦.

هذه الآيات بجملتها تشير إلى قصة وحادثة تتعلق بسيدنا داود ﷺ وآخَرَين رتب عليها أن داود طلب المغفرة من الله تعالى فغفر الله له ما صدر منه، كما أن أمر الله لداود بالحكم بالحق وعدم اتباع الهوى قد يعلم منه أنه ظلم في حكمه ومال مع الهوى فكيف يكون ذلك؟.

الكلام في تفسير هذه الآيات كثير، وادعى بعض المفسرين أن لفظ (النعجة) المقصود به (المرأة) وأن القصة درس لداود الذي طمع في زوجة أحد قواده وقد دبَّر حيلة للخلاص منه حتى يتزوجها ولم يقنع بما عنده من النساء، وهو كلام ينافي عصمة الأنبياء ومقامهم الرفيع، والقول الحق في ذلك أن الخصومة حقيقية في شركة أغنام وأن المتخاصمين أرادا التحاكم إلى داود على وجه السرعة حتى يحسم النزاع، غير أن داود كان في ذلك الوقت في خلوته الخاصة يعبد الله في المحراب كنظام وضعه لنفسه في توزيع أعماله بين الله وبين الناس، ولم يجد الخصمان وسيلة للوصول إليه إلا تسلق سور المحراب الذي يتعبد فيه فظن داود أن مجيئهم في هذا الوقت وبهذه الصورة يراد به شر فطمأناه وقصَّا أمامه حكايتهما وبدأ أحد الخصمين بتوجيه الاتهام إلى الطرف الآخر فنطق داود بالحكم بإدانة صاحب الغنم الكثيرة قبل أن يُدلي بحجته، وهنا أحس داود بأنه أخطأ في ظنه أن هؤلاء يريدون به شرًّا وأن الله امتحنه بالخوف منهم فاستغفره مما حدَّث به نفسه ومنَّ الله عليه بقبول استغفاره، ثم نبهه سبحانه إلى أن مما يساعد على إصابة العدل في الحكم التأني حتى تُسمع حجة الطرفين، وعدم التأثر بمظاهر الناس

والبعد بالعواطف عن التدخل في الحكم؛ فقد يكون المدعي مخطئًا وظاهره يوحي بالصدق، وتوجيه الله له باتباع الحق وعدم الميل مع الهوى على الرغم من صواب حكمه لا يدل على ظلمه أو ميله مع العواطف فقد يكون توجيهًا بالاستمرار على اتباع الحق كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾[1] فلم يكن منه عصيان لكي يؤمر بالتقوى.

فالذي ظنه داود عليه السلام يعد ذنبًا في جانبه لعلو منزلته وقربه من الله؛ فهو من الصغائر التي لا تخل بعصمة الأنبياء، وهذا هو الذي ينبغي أن يفهم من الآية فلا تلتفت لغيره.

* * *

ما ورد في حق سيدنا سليمان عليه السلام

قال الله تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴾[2]

---

(١) الأحزاب: ١.

(٢) ص: ٣٠.

معنى هذه الآيات إجمالًا أن الله تعالى تفضل على داود فرزقه سليمان المتصف بأنه أوَّاب كثير الرجوع إلى الله سبحانه وتعالى، والشاهد على أنه كثير الرجوع إلى الله سبحانه أنه كان يقتني صنفًا من الخيل الجياد فاستعرضها من زوال الشمس إلى آخر النهار ليصلح من شأنها ما يحتاج إلى إصلاح حتى تكون جاهزة للانتفاع بها في طاعة الله سبحانه وتعالى؛ فترتب على ذلك أنه فاتته صلاة العصر فندم على ذلك، وقال: ﴿ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي ﴾[1] أي آثرت حب الخير منيبًا له على ذكر ربي، والمراد من الخير الذي آثره على ذكر ربه وهو الصلاة الاشتغال بإعداد الخيل للجهاد.

فالذي وقع منه أنه نسي عبادة لشغله بعبادة أخرى، وهذا لا يقدح في العصمة، ولعدم رضاه بذلك طلب إرجاع الخيل إليه ولما ردت إليه أخذ يقطع سيقانها وأعناقها بالسيف قربانًا لله تعالى، وكان التقرب بالخيل مشروعًا في دينه، وقطع سيقانها ليتأتى ذبحها.

وقال تبارك وتعالى: ﴿ وَلَقَدۡ فَتَنَّا سُلَيۡمَٰنَ وَأَلۡقَيۡنَا عَلَىٰ كُرۡسِيِّهِۦ جَسَدٗا ثُمَّ أَنَابَ ۝٣٤ قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ﴾[2].

---

(١) ص: ٣٢.

(٢) ص: ٣٤-٣٥.

ورد عن النبي ﷺ في كتاب التفسير في صحيح البخاري تفسير هذه الآية، وهذا مضمون ما ورد.

قال سليمان: لأطوفن اليوم على أربعين امرأة من نسائي تأتي كل واحدة بفارس يجاهد في سبيل الله، ولم يقل: إن شاء الله؛ فطاف عليهن فلم تحمل إلا امرأة واحدة وجاءت بولد غير كامل الخلقة؛ فأخذته القابلة[1] ووضعته على كرسي سليمان، وقال نبينا ﷺ: «**فوالذي نفس محمد بيده لو قال: إن شاء الله لجاهدوا فرسانًا**» فالذي حصل من سليمان هو تركه للمشيئة، وهذا فيه ارتكاب خلاف الأولى فعدَّه سليمان ذنبًا واستغفر منه، وهذا لا يقدح في العصمة، وهذا أحسن ما قيل في فتنة سليمان فلا تلتفت لغيره مما قيل في بيان معنى الآية.

* * *

ما ورد في حق يونس عليه السلام

قال الله تبارك تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[2] اشتملت الآيات

---

(١) أي ما يسمى عند العوام (الدَّاية).

(٢) الأنبياء: ٨٧-٨٨.

على حمل ظاهرها يحتمل ما يجب تنزيه الأنبياء عنه؛ أولًا قوله: ﴿ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا ﴾ ثانيًا قوله: ﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ ﴾ ثالثًا قوله: ﴿ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ وربما تمسك الطاعنون في عصمة الأنبياء بذلك الظاهر، ولكن حيث علمنا ما وجب للأنبياء بالدليل العقلي وجب حمل الآية على ما لا يتنافى مع ما قضى به العقل.

وهذا بيان معنى الآية على وجه صحيح لا تخرج عنه:

اذكر يا محمد صاحب الحوت وهو يونس بن متى ﷺ إذ ترك قومه غاضبًا عليهم ليأسه من إجابتهم دعوته لما رأى منهم الإصرار على معتقدهم مع طول دعوته؛ فأتى بحر الروم فوجد قومًا هيئوا سفينة فركب معهم، وكانت السفينة مليئة بالركاب وتمايلت السفينة وأشرفت على الغرق فقال الملاحون: معنا رجل عاصٍ أو عبد آبق[1] ومن عادتنا وصفتنا أنا إذا ابتلينا بذلك أن نقترع فمن وقعت عليه القرعة ألقيناه في البحر، ولأن يغرق أحدنا خير من أن تغرق السفينة فاقترعوا ثلاث مرات فوقعت القرعة فيها كلها على يونس ﷺ فقال: أنا الرجل العاصي والعبد الآبق فألقى نفسه في البحر فجاء حوت فابتلعه فأوحى الله تعالى إلى الحوت: «لا تؤذِ منه شعرة فإني جعلت بطنك سجنًا له ولم أجعله طعامًا لك» ثم لما نجاه الله تعالى من بطن الحوت أخرجه بالعراء أي الفضاء الذي لا ستر له

---

(١) آبق: هارب من سيده.

فأنبت عليه شجرة من القرع يستظل بها ويأكل من ثمرها حتى اشتد وشفي فأوحى الله تعالى إليه وأمره أن يخرج إلى قومه.

والخروج هجرة من غير أمر وإذن من الله سبحانه وتعالى، والذي سهل له الخروج وتركه لقومه هو ظنه أن الله تعالى لا يضيق عليه في اختياره الخروج، وهذا بيان لما يجري مجرى العذر ليونس حيث إنه لم يخرج متعمدًا المعصية بل لظنه أن الخروج مباح، وعلى هذا البيان يكون معنى (نقدر) في الآية نُضَيِّق، ومما جاء على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾[1] وقيل: معناه: ظن أن لن نقضي عليه بشيء مجازاةً له على تلك الهجرة فكان ما كان من الاقتراع والتقام الحوت ﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ﴾[2] أي في الظلمة الشديدة في بطن الحوت فهي كظلمات لشدتها ﴿لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ﴾[3] أنزهك تنزيهًا لائقًا بك ﴿إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ لأنفسهم حيث تركت الأَوْلى وهو انتظار الأمر بالمهاجرة إلى غير الأَوْلى وهو الخروج بدون أمر، ودرجات الأنبياء الرفيعة تدعوهم إلى أن يعبروا عن ذلك الأمر الذي هو خلاف الأَوْلى بأنه ظلم، وعلى هذا البيان فليس في الآية ما ينافي عصمة الأنبياء.

---

(١) الروم: ٣٧.

(٢) الأنبياء: ٨٧.

(٣) الأنبياء: ٨٧.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٦٧ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[1].

ظاهر هذه الآية ربما يشعر بأن النبي ﷺ ارتكب خطأ كان يستوجب عذابًا عظيمًا ولكن إذا وقفت على المعنى الصحيح للآية أيقنت بأنه ﷺ لم يذنب، وإليك بيان سبب نزول الآية ليتضح لك المعنى تمام الإيضاح.

لما انتهى النبي ﷺ من غزوة بدر ورجع إلى المدينة قسَّم الغنائم التي فاز بها المسلمون واقتاد معه الأسرى الذين قُتل بعضهم في الطريق وما بقي منهم فرَّقهم على أصحابه وقال: «**استوصوا بهم خيرًا**» ثم بعثت قريش في فدائهم فلم يشأ النبي أن يستقل بالرأي في هذه المسألة فاستشار أصحابه فيما يفعله بهؤلاء الأسرى فقال أبو بكر ﷺ يا رسول الله: هؤلاء أهلك وقومك قد أعطاك الله الظفر والنصر عليهم؛ فأرى أن تستبقيهم وتأخذ الفداء منهم فيكون ما أخذته منهم قوة لنا على الكفار، وعسى الله أن يهديهم بك فيكونون لك عضدًا، وقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله قد كذبوك وقاتلوك وأخرجوك من بلدك فأرى أن تمكِّنني من فلان (قريب له) فأضرب عنقه وتمكِّن حمزة من أخيه العباس

---

(١) الأنفال: ٦٧-٦٨.

وعليًّا من أخيه عقيل وهكذا حتى يُعْلم أنه ليس في قلوبنا مودة للمشركين ما أرى أن تكون لك أسرى فاضرب أعناقهم، هؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم؛ فقال عليه الصلاة والسلام: «**إن الله لَيُلين قلوب أقوام حتى تكون ألين من اللين، وإن الله ليشدد قلوب أقوام حتى تكون أشد من الحجارة، وإن مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم قال:** ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[1] **ومثل عيسى حين قال:** ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[2] **ومثلك يا عمر مثل نوح قال:** ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾[3] **ومثل موسى قال:** ﴿ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾[4] .

ثم مال إلى رأي أبي بكر وأعلن ذلك على المسلمين لحاجتهم إلى المال واختار الفداء على القتل فنزلت الآية عتابًا للنبي، ومعناها: لا ينبغي لنبي أن يستبقي الأسرى بدون قتل في مقابلة فداء يأخذه إلا بعد أن يذل الكفر ويقل أهله ويعز

---

(١) إبراهيم: ٣٦.

(٢) المائدة: ١١٨.

(٣) نوح: ٢٦.

(٤) يونس: ٨٨.

الإسلام وينتشر، ويكون المسلمون في أمن تام على عقيدتهم ومالهم وأرواحهم، أنتم أخذتم متاع الدنيا والله يريد لكم ثواب الآخرة ﴿ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ﴾ يجعل الغلبة لأوليائه على أعدائه ﴿ حَكِيمٌ ﴾ يعلم ما يليق بكل حال ويخصه بها ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ ﴾ لولا حكم سابق من الله في اللوح المحفوظ وهو أن المجتهد لا يعاقب على اجتهاده وإن أخطأ ﴿ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ ﴾ لأصابكم لأجل الذي أخذتموه من الفدية ﴿ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾.

وقد قال كثير من العلماء: إن النبي يجتهد ويجوز عليه الخطأ كما يجوز على كل مجتهد من أمته غير أنه إذا اجتهد وأخطأ في اجتهاده ينزل عليه الوحي يبيّن له أن هذا الحكم الذي وصل إليه باجتهاده يقتصر على هذه الحادثة أما في المستقبل فالحكم غير ذلك.

فالآية حينئذ ليس فيها إلا عتاب النبي ﷺ على تسرعه في الاجتهاد فكان ينبغى أن ينتظر الوحي.

ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝ ﴾[1].

(١) التوبة: ٤٣.

فإنها سيقت عتابًا للنبي على ترك الأَوْلى وهو تأخير الإذن بالتخلف لطالبيه فإنه لو أخّر الإذن لهم بالتخلف لظهر كذبهم وافتضحوا بين الناس، وكان إذن النبي لهم بالتخلف بناء على اجتهاد منه، وكان الأَوْلى له انتظار الوحي.

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَـٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾[1].

ذكر بعض الكاتبين في تفسير هذه الآية ما حاصله: تبنّى رسول الله زيد بن حارثة وكان متزوجًا زينب بنت جحش فتوجه رسول الله يومًا إلى بيت زيد فلم يجده ووجد زوجه زينب فلما نظر إليها قال: سبحان الله سبحان خالق النور تبارك الله أحسن الخالقين، ثم خرج فلما جاء زيد أخبرته زوجه بما حدث فقال لها: لعلك وقعت في قلب رسول الله فهل لك أن أطلقك حتى يتزوج بك فقالت: أخشى أن تطلقني ولا يتزوج بي؛ فجاء زوجها إلى رسول الله، وقال له: أتريد أن أطلق زينب فقال له: أمسك عليك زوجك واتق الله؛ قال هذا بحسب الظاهر وفي الواقع كان يود الطلاق والتزوج بها.

---

(١) الأحزاب: ٣٧.

والآية بهذا التفسير تضمنت أمورًا تقدح في عصمة النبي ﷺ؛ فقد أثَّرت عليه الشهوة فخضع لها، وقد تمنى زوال نعمة غيره، وقد أظهر خلاف ما أضمر في قلبه مما يدل على النفاق.

هذه الأمور تخل بالمروءة والشرف فإن فيها التعريض بامرأة زيد وإظهار الميل إليها من طريق خفي في غيبة زوجها كما يُظهر ذلك قوله: سبحان خالق النور تبارك الله أحسن الخالقين؛ وحيث كان هذا مخلًّا بالعصمة وجب رده وعدم النظر، إليه وأما عن معنى الآية وسبب نزولها على الوجه الصحيح الذي يوافق العقل والشرع فنقول: تبنَّى رسول الله زيد بن حارثة وكان التبني معتادًا بين العرب، وتزوج زيد زينب بنت جحش وكانت دائمًا تفتخر عليه بشرفها وعلو نسبها فكان يشكو للنبي ما يحصل منها.

وعقب ذلك أوحى الله إلى النبي بأن زيدًا سيطلق زوجه وستكون زوجًا للنبي، والحكمة في ذلك أن يبين للناس أن التبني ليس كالبنوة الحقيقية فيجوز للإنسان أن يتزوج مطلقة مَنْ تبنَّاه ولا يجوز له أن يتزوج مطلقة ابنه، بعد هذا الوحي كان يأتي زيد إلى النبي ﷺ ويقول: يا رسول الله إنها لا تزال تفخر وتتعالى علي إني أريد أن أطلقها فيقول له النبي: «**أمسك عليك زوجك واتقِ الله في شأنها**»؛ كان يقول هذا مع كون الوحي نزل عليه بأن زيدًا سيطلقها وأن النبي سيتزوج بها.

والذي جعل النبي يقول ذلك مع كون الوحي نزل عليه بما يحدث أنه رأى لو أظهر الوحي الذي نزل عليه من أن زيدًا سيطلقها وأنه سيتزوج بها ثقيل عليه

من قِبَل أعدائه أنه تزوج مطلقة من تبنَّاه فنزلت الآية عتابًا له تقول: ﴿ **وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ** ﴾[1] بتوفيقه للإسلام ﴿ **وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ** ﴾ بالتبني وتعهده بالتربية والرعاية ﴿ **أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ** ﴾ ولا تطلقها ﴿ **وَٱتَّقِ ٱللَّهَ** ﴾ في أمرها ﴿ **وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ** ﴾ تستر على الناس أمرًا سيظهره الله وهو أن زيدًا سيطلقها وأنك ستتزوج بها، وتخاف من اعتراض الناس عليك وقولهم إن محمدًا تزوج زوج ابنه، والحال أن الله تعالى أحق بالخشية والخوف، وهذا موضع العتاب من الله لنبيه.

وكأنه يقول له: كان الأَوْلى بك أن تسكت أو تظهر الأمر للناس فإن طلاق زيد لزوجه وتزوجك بها لحكمة عظيمة سيترتب عليها تشريع عظيم أشارت الآية إليه في قوله تعالى: ﴿ **فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا** ﴾ حاجة ﴿ **زَوَّجْنَـٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ** ﴾ صيرناها زوجة لك يا محمد لأجل أن لا يكون على المؤمنين ضيق في تزوج أزواج أبنائهم بالتبنِّي ﴿ **إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ** ﴾ إذا طلقوهن وانقضت عدتهن فإن لهم في رسول الله القدوة الحسنة.

وبيان الآية على هذا الوجه لا يقدح في العصمة لأنه لم يقع من النبي إلا ترك الأَوْلى بل يتفق مع ما قضى به العقل فيجب الاعتماد عليه ولا يلتفت إلى غيره.

---

(١) الأحزاب: ٣٧.

وقال الله تعالى: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝ ﴾[1] قد ذكر لفظ المغفرة في هذه الآية وهو يشعر بارتكاب ذنب ولكن تقرر بالأدلة القوية عصمة الأنبياء عن كبائر الذنوب وعن صغائرها التي فيها خسة على ما ذهب إليه أكثر العلماء، وكل ما يخالف ذلك من نصوص يجب صرفه عن ظاهره.

وقد قال العلماء عن هذه الآية: إن النبي ﷺ فرح جدًّا عندما نزلت عليه هذه الآية لتوفيق الله له في صلح الحديبية لما يترتب عليه من الآثار العظيمة، والمراد بالمغفرة هنا لازمها وهو سعادة الدنيا والآخرة فإن من ستره الله وتجاوز عن مؤاخذته يقبله ويرفع درجاته وييسر له أمره، والشخص الذي التزم التقوى حتى صارت له كالطبع يؤمن عليه من المخالفة في الغالب، ومن كان كذلك يوفقه الله في مستقبل حياته ليكون ذلك امتدادًا لما سبق من توفيق.

ولعل مما يوضح ذلك قول النبي في حق أهل بدر: «**لعل الله قد اطَّلع على أهل بدر فقال لهم: «اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»**»[2].

---

(١) الفتح: ١-٣.

(٢) رواه البخاري ومسلم

والمراد أن الله سيوفقهم للصالحات في مستقبل حياتهم لقاء ما قدموا من أعمال تدل على رسوخ الإيمان في نفوسهم وحب الطاعة حبًّا جعلها كالطبع المتأصل فيهم.

وهذا الإنعام العظيم من الله على نبيه الكريم يستوجب منه ﷺ أن يشكره عليه ويزيد في طاعته لربه، وهو ما استشعره الرسول فكان يقوم من الليل حتى تتورم قدماه، ويرد على من يسأله عن سر هذا الإرهاق وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، أي ضمن له التوفيق والقبول؛ فيقول: «**أفلا أكون عبدًا شكورًا**»[1].

وقال تعالى في سورة (الضحى): ﴿ **وَوَجَدَكَ ضَآلاًّ فَهَدَىٰ** ﴾[2] يظن بعض الجهال من ظاهر الآية أن النبي ﷺ كان منحرفًا عن الصراط المستقيم مائلًا عن الحق فهداه الله إليه، ومنشأ ذلك الظن عدم الإحاطة بمدلولات الألفاظ ومعانيها التي تستعملها العرب فيها، وعدم العلم بما يجب للأنبياء من الصفات التي يجزم العقل بثبوتها لهم.

ولبيان معنى الآية على الوجه الصحيح نقول: الضلال أنواع: ضلال الشرك، وضلال الهوى، وضلال الطريق.

وقد قام الدليل العقلي وإجماع أهل الأديان على أن الشرك مستحيل على الأنبياء قبل البعثة وبعده عمدًا وسهوًا؛ فيبطل إرادته وحمل الآية عليه، وقام

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) الضحى: ٧.

الدليل العقلي على أن صدور الكبائر من الأنبياء مستحيل فلا تصح إرادته من الآية وحملها عليه؛ فلم يبقَ إلا النوع الثالث وهو ضلال الطريق فيجب حمل الآية عليه، وحينئذ نقول:

لقد نشأ النبي بين قومه مطبوعًا على التمسك بالفضائل وأحسن الأخلاق حتى كانوا يلقبونه بالصادق الأمين، فقد كان يتطلع دائمًا إلى ما يرفع شأن قومه الذين ضلوا الطريق وعبدوا الأصنام وعاشوا حياة الجاهلية، ورأى ديانة النصارى وقد حادوا عن الطريق المستقيم فخلطوا دينهم بما فيه شائبة الشرك، وكذلك المتمسك بدين اليهودية؛ لهذا كان النبي يفكر دائمًا في سلوك طريق ينقل به هؤلاء الناس من تلك الغفلة إلى ما فيه سعادتهم؛ فكان يخلو بغار حراء كي تصفو روحه ويتصل بالخالق اتصالًا تامًّا حتى يرشده إلى الطريق الموصل، ولا زال هكذا إلى أن اصطفاه الله للرسالة ونزل عليه جبريل وبيَّن له الطريق الذي يسلكه فزالت تلك الحيرة، وحينئذ يكون معنى قوله تعالى: ﴿ **وَوَجَدَكَ ضَآلاً فَهَدَىٰ** ﴾ وجدك متحيرًا في الطريق الذي تسلكه لهداية هذه الطوائف فهداك إلى الطريق الذي أرشدك إليه جبريل ﷺ.

وبيان الآية على هذا الوجه ليس فيه شيء يخل بعصمة النبي ﷺ.

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾[١].

ربما يفهم الناظر إلى ظاهر قوله تعالى: ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴾[٢] أن المراد من الوزر الذنب فتكون الآية دالة على أن النبي ارتكب ذنبًا وعافاه الله من المؤاخذة به، وهذا ينافي ما ثبت بالدليل العقلي وهو العصمة؛ لهذا نقول: ليس الأمر كما ظن ذلك الناظر إنما الآية تحكي ما كان عليه الرسول في مبدأ أمره وما صار إليه أمره فيما بعد.

كان الوحي في مبدأ الأمر شديدًا على النبي حين مقابلة الملك نظرًا لعدم العهد به من قبل حتى كان النبي يذهب إلى أهله عقب الوحي ويقول «**زملوني**[٣] **زملوني**» وكان نشر الدعوة في مبدأ الأمر صعبًا لعدم عهد قومه بذلك الدين الجديد، واختصاص النبي بالدعوة إليه من بينهم.

ثم تغير الحال بعد ذلك فحصل عند النبي تعود على المَلَك وتمكن من نشر الدعوة؛ فشبه حاله بحال رجل حمل شيئًا ثقيلًا على ظهره ثم وضعه.

---

(١) الشرح: ١-٦.

(٢) الشرح: ٢.

(٣) زملوني: لفوني بالثياب وغطوني حتى يذهب عني الخوف.

ولا شك أنه قبل وضع ذلك الشيء عن ظهره يكون متألمًا متعبًا وبعد وضعه عن ظهره يزول الألم والتعب.

كذلك النبي بعد أن كان في مبدأ الأمر يلاقي شدائد في تحمل الوحي ونشر الدعوة أبدله الله سبحانه وتعالى راحة بعد معاناة ويسرًا بعد عسر ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾[1].

وعلى هذا البيان فليس في الآية ما يخل بعصمة النبي ﷺ.

* * *

(١) الشرح: ٥.

الأنبياء بشر فيجري عليهم ما يجري على البشر من الأعراض البشرية الفطرية؛ فيصيبهم الخوف كما حدث لسيدنا إبراهيم فقد تسلل الخوف إلى نفسه عندما رأى أيدي ضيوفه لا تمتد إلى الطعام الذي قدمه لهم، وذلك قبل أن يخبروه بأنهم ملائكة أرسلهم الله لإهلاك قوم لوط قال تعالى: ﴿ **فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ** ﴾[1].

وكذلك غضب سيدنا موسى غضبًا شديدًا وأخذ برأس أخيه هارون يجره إليه وألقى الألواح، وذلك عندما عاد إلى قومه بعد أن تم ميقات ربه فوجدهم يعبدون العجل؛ قال تعالى: ﴿ **وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَـٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ** ﴾[2]، وكذلك غضب نبي من الأنبياء إذ قرصته نملة فأمر بقرية النمل فأحرقت فعاتبه الله على ذلك، فقد جاء في الحديث الذي رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: «**نزل نبي من الأنبياء تحت**

(١) هود: ٧٠.

(٢) الأعراف: ١٥٠.

شجرة فلدغته نملة فأمر بجهازه فأخرج من تحتها ثم أمر ببيتها فأحرق بالنار فأوحى الله إليه: فهلَّا نملة واحدة»[1].

ومن ذلك النسيان والمقصود به النسيان في غير البلاغ وفي غير أمور التشريع؛ فمن ذلك ما روي في الحديث عن أبي هريرة قال: «صلى بنا رسول الله ﷺ إحدى صلاتي العشي[2] فصلى ركعتين ثم سلَّم فقام إلى خشبة معروضة في المسجد فاتكأ عليها كأنه غضبان، ووضع يده اليمنى على اليسرى وشبَّك بين أصابعه ووضع خدَّه الأيمن على ظهر كفه اليسرى، وخرجت السرعان[3] من أبواب المسجد فقالوا: قصرت الصلاة، وفي القوم أبو بكر وعمر فهابا أن يكلماه، وفي القوم رجل يقال له ذو اليدين، فقال: يا رسول الله، أنسيت أم قصرت الصلاة؟ فقال: «**لم أنس ولم تقصر**»، فقال: «**أكما يقول ذو اليدين**»؟ فقالوا: نعم، فتقدم فصلَّى ما ترك ثم سلَّم ثم كبَّر وسجد مثل سجوده أو أطول ثم رفع رأسه وكبَّر وسجد مثل سجوده أو أطول ثم رفع رأسه وكبَّر فربما سألوه ثم سلَّم فيقول: أنبئت أن عمران بن حصين قال: ثم سلَّم»[4].

---

(١) رواه البخاري.

(٢) العشي: ما بين زوال الشمس وغروبها، وقد جاء في إحدى الروايات أنها صلاة الظهر.

(٣) السرعان: هم المسرعون إلى الخروج.

(٤) متفق عليه، وليس لمسلم فيه وضع اليد على اليد ولا التشبيك.

وأما النسيان فهو ممتنع في البلاغيات قبل تبليغها قولية كانت أو فعلية وأما بعد التبليغ فيجوز نسيان ما ذكر على أنه من الله تعالى، وقد اتفقوا على أن كل ما كان طريقة الإبلاغ في القول فهم معصومون فيه مطلقًا، أما ما كان طريقة الإبلاغ في الفعل فمعظم المحققين وجماهير العلماء ذهبوا إلى جواز السهو والنسيان ووقوعه منهم.

قال القاضي عياض: «وهذا هو الحق ثم لابد من تنبيههم عليه، وذكرهم إياه إما في الحين على قول جمهور المتكلمين[1] وإما قبل وفاتهم على قول بعضهم ليسنُّوا حكم ذلك ويبيِّنوه قبل انخرام[2] مدتهم وليصح تبليغهم ما أنزل إليهم».

وقد صرح الرسول ﷺ بطروء النسيان عليه كعادة البشر؛ ففي حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «**ولكنِّي إنما أنا بشر أنسى كما تنسون فإذا نسيت فذكروني**»[3] وقال هذا بعد نسيانه في إحدى الصلوات.

وكذلك قد يخطئ الأنبياء والرسل في إصابة الحق عند حكمهم في قضية من القضايا فقد روت أم سلمة زوج النبي ﷺ «أن النبي ﷺ سمع خصومة بباب حجرته فخرج إليهم فقال: «**إنما أنا بشر وإنه يأتيني الخصم فلعلَّ بعضكم أن**

---

(١) علماء الكلام أي التوحيد.

(٢) انقضاء وانتهاء.

(٣) رواه الجماعة إلا الترمذي.

يكون ألحن بحجته من بعض فأحسب أنه صادق فأقضي له بذلك فممن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار فليأخذها أو ليتركها»[1].

وكذلك لا ينافي عصمتهم- بحكم طبيعتهم البشرية- الحزن والبكاء فقد حزن يعقوب عليه السلام حزنًا شديدًا على يوسف وأخيه، ويشتد به الحزن حتى تبيض عيناه، وذلك لا يتنافى مع الرضا بقضاء الله؛ فقد قال يعقوب: ﴿ **فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ** ﴾[2] وعند تلقي النبأ عن أخيه قال: ﴿ **فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا** ﴾[3] والحزن ظاهرة طبيعية وعاطفة لا يمكن أن تقاوم عند عامة البشر، وقد بكى النبي ﷺ على موت ولده ولما سُئل قال: «**إن البكاء رحمة**» وصرح في موت إبراهيم ابنه فقال: «**إن العين لتدمع وإن القلب ليخشع ولا نقول إلا ما يرضي الرب وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون**»[4].

٢- الصدق

وواجب في حق الرسل الصدق، وهو مطابقة خبرهم للواقع ولو بحسب اعتقادهم، والدليل العقلي على وجوبه أنهم لو لم يصدقوا للزم الكذب في خبره

---

(١) رواه البخاري.

(٢) يوسف: ١٨.

(٣) يوسف: ٨٣.

(٤) رواه البخاري.

تعالى لتصديقه لهم بالمعجزة النازلة منزلة قوله تعالى: «صدق عبدي في كل ما يبلغ عني» وتصديق الكاذب كذب وهو محال في حقه تعالى؛ فينتج أن عدم صدقهم محال، وإذا استحال عدم الصدق وجب الصدق وهو المطلوب؛ وعليه فلو جاز تعمد الكذب عليهم لبطلت دلالة المعجزة على الصدق، أما جواز صدوره عنهم في الأحكام غلطًا أو نسيانًا فمنعه طائفة كبيرة من العلماء لما فيه من مناقضته دلالة المعجزة القاطعة وجوَّزه البعض، والخلاف في امتناع ذلك وجوازه عقلًا ليس معناه أن هذا الخلاف يجري كذلك في شأن وقوع ذلك منهم بل الاتفاق على امتناع ذلك منهم بحسب الواقع، واتفق أهل العلم على عصمة النبي منه قبل البعثة وبعدها؛ قال تعالى: ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾[1] أي: لا ينسبونك إلى الكذب لا قبل النبوة ولا بعدها.

ومن الأدلة الشرعية على وجوب الصدق للأنبياء قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾[2]، وقال سبحانه: ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ

---

(١) الأنعام: ٣٣.

(٢) النجم: ٣-٤.

ٱلۡأَحۡزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمۡ إِلَّآ إِيمَٰنٗا وَتَسۡلِيمٗا ﴾[1].

وقد أجمعت الأمة على صدقه ﷺ وصدق أخباره فيما كان طريقه البلاغ وأنه معصوم فيما أُمر بتبليغه من الأخبار عن مجيء شيء منها بخلاف ما هو لا قصدًا ولا عمدًا ولا سهوًا ولا غلطًا، أما تعمد الكذب في ذلك فمستحيل بدليل المعجزة إذ معجزته كما دلت على نبوته دلت على صدقه، وبدليل أنه لم يقع ذلك منه كما هو ثابت بالإجماع.

إن أساس النبوة تبليغ الأحكام والإعلام بما يتعلق به حق الخلق، وتجويز شيء مما يخل بمنصب النبوة- سواء كان صغيرة أو كبيرة قليلة أو كثيرة- قادح في هذا الأساس- الذي هو الإبلاغ- وموقع في الشك والتهمة ومناقض للمعجزة؛ لذا جاء في (الشفا) للقاضي عياض: (إن الصواب تنزيه النبوة عن قليل الكذب وكثيره بالأولى وسهوه وعمده بخلاف غيرها من الصغائر إذ فيها القولان المشهوران للسلف والخلف).

عصمة النبي ﷺ شاملة للأقوال والأحوال

إن عصمته ﷺ قد تقررت في أقواله وفي جميع أحواله فلا يصح عنه فيها كذب ولا اضطراب في عمد ولا سهو ولا صحة ولا مرض ولا جِد ولا مزاح ولا رضا ولا غضب؛ فيجب اعتقاد تنزيه النبي ﷺ عن أن يقع في خبر من الأخبار-

---

(١) الأحزاب: ٢٢.

في أمور الدنيا مما لا يتعلق بالآخرة، وفي أحوال نفسه الشريفة مما يتعلق بغده وأمسه- ضد ما أخبر به لا عمدًا ولا سهوًا ولا غلطًا، وأنه ﷺ معصوم من ذلك في حال رضاه وفي حال غضبه وفي حال مزاحه وصحته ومرضه لسلامة قلبه وصحة لسانه وصفاء روحه، ودليل ذلك اتفاق الصحابة والتابعين وإجماعهم؛ فإنه ﷺ كان يمزح ولا يقول إلا حقًّا؛ فعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «**إني لأمزح ولا أقول إلا حقًّا**»[1].

٣- الفطانة:

ومما يجب للرسل عليهم السلام الفطانة.

والفطانة: تعني أن الرسل هم أعقل الناس وأرجحهم فكرًا وأعظمهم ذكاءً وأقدرهم على الإقناع بإقامة الأدلة والبراهين وذلك لإلزام خصومهم وإبطال دعاويهم.

والدليل العقلي على وجوبها أن الله تعالى بعثهم بعقيدة التوحيد وبمنهج الحياة السعيدة المطمئنة، وأقوام الأنبياء متفاوتون في المستوى الفكري والعقلي وفيهم أصحاب الفِطَر السوية وفيهم المتمردون على القيم والفضائل؛ فلو لم يكن الرسل فطناء حكماء أذكياء لكانوا عاجزين عن إقامة الأدلة ورد الشبهات، وكان إرسالهم بهذه الصفة عبثًا، والعبث محال على الله فتجب لهم الفطانة.

---

(١) رواه الطبراني في الصغير وإسناده حسن.

ومن الأدلة الشرعية على ذلك قال الله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ ﴾ [1] وقال أيضًا: ﴿ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [2] .

فقوم نوح رفضوا منطق الحجة والعقل وآثروا العناد وأصروا على التكذيب بعدما عجزوا عن مجادلة نبي الله نوح الذي أفحمهم بالحجج والبراهين.

وفي مجادلة إبراهيم للنمروذ بن كنعان الذي قال: ﴿ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ ﴾ [3] أراد سيدنا إبراهيم أن يخرسه ويقيم عليه الحجة؛ فقال تعالى حكاية عن ذلك: ﴿ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ ﴾ [4] .

فإن قيل: هذه الآيات واردة في بعض الأنبياء فلا تدل على ثبوتها لجميعهم أجيب: بأنه لما ثبت الكمال لبعضهم ثبت لكلهم وإن كانوا أنبياء فقط؛ إذ اللائق بمنصب النبوة أن يكون عندهم من الفطانة ما يردون به الخصم إذا ما وقع جدال معه.

---

(١) الأنعام: ٨٣.

(٢) هود: ٣٢.

(٣) البقرة: ٢٥٨.

(٤) البقرة: ٢٥٨.

روي عن وهب بن منبه قوله: «قرأت في واحد وسبعين كتابًا فوجدت في جميعها (أن الله تعالى لم يعطِ جميع الناس من بدء الدنيا إلى انقضائها من العقل في جنب عقل محمد ﷺ إلا حبة رمل من بين جميع رمال الدنيا وأن محمدًا ﷺ أرجح الناس عقلًا).

ومما يدل على رجاحة عقل الرسول ﷺ هذا الموقف المشهور؛ فقد وضع الرسول الحجر الأسود في موضعه في بناء الكعبة حين اختصمت قريش فيه وحكَّمته فحكم بما أرضاهم جميعًا؛ فقد أرادت كل قبيلة أن ترفعه إلى موضعه وتنازعت القبائل الأربع على وضعه واستمر النزاع خمس ليال واستدعوا للقتال ثم اجتمعوا في المسجد الحرام وتشاوروا فيما بينهم، وقال أبو أمية بن المغيرة المخزومي- وكان أكبرهم سنًّا-: يا معشر قريش اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضي بينكم- فيه فأقبل رسول الله ﷺ فلما رأوه مقبلًا قالوا: قد رضينا بحكم محمد بن عبدالله، وكانت قريش تسميه الأمين قبل أن ينزل عليه الوحي فحكم بينهم أن يجعلوا الحجر الأسود في ثوب ثم يرفعه رجل من كل قبيلة من القبائل الأربع وبسط رداءه ثم وضع الحجر وسطه وقال: لتأخذ كل قبيلة بطرف من الرداء؛ فرفعوه جميعًا وساروا حتى بلغوا به موضعه فأخذه رسول الله ووضعه في موضعه بيده الشريفة، وانتهى النزاع بينهم بفضل حكم الرسول ورجاحة عقله، وكان الرسول أصغر الحاضرين سنًّا.

٤- التبليغ

وصفة التبليغ تعني أن الرسل قاموا بإيصال جميع ما أمرهم الله تعالى بتبليغه إلى أقوامهم ولم يكتموا شيئًا من الوحي الذي أنزله الله إليهم، ولا خلاف أنهم معصومون من كتمان الرسالة والتقصير في التبليغ.

والدليل العقلي على وجوبها في حق الأنبياء أن كتمان شيء من الوحي يعد خيانة، والخيانة تستحيل في حق الرسل لأنها نقص تنزه عنه الأنبياء؛ كذلك فإن كتمان شيء من الوحي الإلهي يضيع فائدة الرسالة ويتنافى مع حاجة البشر إلى النبوة؛ كما أن الكتمان يؤدي إلى النقص في حق الله تعالى لأنه إما أن يعلم بالكتمان فيكون مقرًّا للخيانة موافقًا عليها أو يكون غير عالم بالكتمان فيكون جاهلًا تعالى الله عن ذلك.

ومن الأدلة الشرعية على وجوب هذه الصفة قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ ﴾[1]، وقال سبحانه: ﴿ فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ ﴾[2].

(١) المائدة: ٦٧.

(٢) الشورى: ٤٨.

الفصل السادس

ما يستحيل في حق الأنبياء عليهم السلام

المستحيل في حق الرسل إجمالًا كل نقص بشري يخل بالرسالة أو يؤدي إلى تنفير الناس منهم كالأخلاق السيئة الرديئة والأمراض المعدية.

وتفصيلًا يستحيل على الأنبياء ضد الصفات الأربعة الواجبة؛ فالخيانة بفعل شيء مما نهي عنه، وهي ضد الأمانة مستحيلة عليهم، والكذب ضد الصدق مستحيل كذلك.

ويستحيل عليهم الغفلة والبلادة ضد الفطانة، وكتمان شيء مما أمروا بتبليغه؛ وذلك لوجوب التبليغ، فهذه الأضداد الأربعة مستحيلة في حق الرسل فهي غير قابلة الثبوت.

والدليل على استحالة هذه الصفات أن هذه الصفات وهي الكذب والخيانة والكتمان والبلادة نقائص لا تليق بمقام الأنبياء الذين يجب لهم كل كمال بشري لأنهم قدوة الناس وقد أُمروا باتباعهم؛ فيجب أن يتصفوا- بحكم العقل- بصفات الكمال البشري وأن يحميهم الله- الذي أرسلهم وأمرنا بالاقتداء بأقوالهم وأفعالهم- من كل ما يقدح في رسالتهم ومنزلتهم بين الناس وإلا استلزم ذلك التناقض وهو محال على الله.

وقد مدح الله أنبياءه ورسله في آيات كثيرة نذكر منها: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ﴾[1] وقال عن موسى: ﴿ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴾[2] وقال له: ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴾[3] وقال عنه: ﴿ وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴾[4] وقال عن أيوب: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ الْعَبْدُ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾[5] وقال عن سليمان: ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ ۚ نِعْمَ الْعَبْدُ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾[6]، وقال تعالى: ﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ۝ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ۝ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ۝ وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ ﴾[7]، وقال تعالى للنبي ﷺ: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝ ﴾[8].

---

(١) النحل: ١٢٠-١٢١.

(٢) طه: ٤٠.

(٣) طه: ٣٩.

(٤) الأحزاب: ٦٩.

(٥) ص: ٤٤.

(٦) ص: ٣٠.

(٧) ص: ٤٥.

(٨) القلم: ٤.

وعن موسى بن طلحة عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا حدثتكم عن الله شيئًا فخذوا به فإني لن أكذب على الله ﷻ**»[1].

وقد بَيَّن الله تعالى عصمة النبي ﷺ عن الخيانة بقوله: ﴿ **وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ** ﴾[2] فالآية نزهت النبي عن الغلول؛ إذ إنه يتنافى مع مقام النبوة؛ فالنبي مؤتمن في كل شأن فكيف يأخذ شيئًا من الغنيمة خفية وهو المؤتمن على أمر الوحي؟!.

وجاء في شرح العقائد للتفتازاني: «الأنبياء معصومون من الكذب خصوصًا فيما يتعلق بأمر الشرائع وبتبليغ الأحكام وإرشاد الأمة أما عمدًا فبالإجماع وأما سهوًا فعند الأكثرين».



---

(١) رواه مسلم.

(٢) آل عمران: ١٣١.


١٢٦

الفصل السابع

ما يجوز في حق الرسل من الأعراض البشرية

الأنبياء عليهم السلام بشر اصطفاهم الله فيجوز عليهم كل الأعراض البشرية بشرط هو ألا تؤدي إلى نقص في مراتبهم العلية.

ومما يجوز عليهم الأكل والجماع الحلال فلا فرق بين أن يكون الجائز في حقهم من توابع الصحة التي لا يُستغنى عنها عادة كالأكل أو التي يُستغنى عنها كالجماع للنساء لكن الجماع مشروط في حال الحِل بأن كان بالمِلْك أو بالنكاح فيجوز لهم الوطء بالمِلْك ولو للأَمَة[1] الكتابية[2] بخلاف المجوسية ونحوها كالوثنية، وقال تعالى: ﴿ **مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ** ﴾[3] فدل على أنهما محتاجان إلى الطعام أكلًا ومفتقران إلى إخراجه ثانيةً وهذا مما ينافي الربوبية، ويقول تعالى: ﴿ **وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ**

---

(١) الأَمَة: أي المملوكة من الرقيق.

(٢) الكتابية: أي اليهودية أو النصرانية.

(٣) المائدة: ٧٥.

﴿وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ﴾[1] وأجسادهم وأبدانهم متصفة بأوصاف البشر يطرأ عليها ما يطرأ على البشر من الأعراض والأسقام والأوجاع فيجوز عليهم المرض ومنه السحر، وإن الحديث الشريف الذي فيه أنه ﷺ قد سُحِر حديث في أعلى درجات الصحة غير أن الذي دلت عليه الدلائل بيقين أنه كان قاصرًا على جسده الشريف أما قلبه وعقله وروحه ﷺ فكل أولئك لم يكن للسحر تسلط عليه.

ومنه الإغماء غير الطويل بخلاف الجنون قليله وكثيره لأنه نقص، وبخلاف الجذام والبرص والعمى وغير ذلك من الأمور المنفرة، وأما ما كان ليعقوب فهو حجاب على العين من تواصل الدموع.

وما كان بأيوب من البلاء لم يكن منفِّرًا أما ما اشتهر عنه من ذلك فهو باطل من فعل اليهود.

ويجوز في حقهم أن تمتد إليهم أيدي الطغاة والظلمة بكافة أنواع الأذى حتى القتل قال تعالى: ﴿لَقَدۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ رُسُلٗاۖ كُلَّمَا جَآءَهُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُهُمۡ فَرِيقٗا كَذَّبُواْ وَفَرِيقٗا يَقۡتُلُونَ﴾[2]، ويجوز في حقهم الموت الذي هو نهاية كل المخلوقات.

---

(١) الفرقان: ٢٠.

(٢) المائدة: ٧٠.

الفصل الثامن

المعجزة وخوارق العادات

ما حكمة المعجزة؟

خلق الله الكون على نظام محكم وقوانين ثابتة قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَـٰوَٰتٍ طِبَاقًاۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَـٰنِ مِن تَفَـٰوُتٍۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ۝ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةً لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورًا ﴾[2].

ويظل هذا النظام البديع وهذه القوانين ثابتة لا ينقضها شيء غير إرادة الله تعالى الذي خلقها ودبر شئونها؛ فهي بيد الله وقائمة بأمره حتى يخرقها الله تعالى معجزة لنبي أو كرامة لولي أو عند قيام الساعة.

وعندما يختار الله من عباده رسلًا إلى الناس يبلغون أحكامه وشرائعه لهم فلابد لهم من دليل يؤكد صدق دعواهم الرسالة هذا الدليل يسمى معجزة،

---

(١) الملك: ٣.

(٢) الفرقان: ٦١-٦٢.

وهذه المعجزة المؤيدة للرسول مُنَزَّلة مَنْزِلة قول الله: «صدق عبدي فيما بلغ عني» فالله تعالى يلفت أنظار الناس إلى صدق هذا الرسول بدليل الخارق للعادة الذي أجراه الله على يديه، والله تعالى لا يؤيد الكذاب بل يفضحه أمام الناس ولا يتركه.

معنى المعجزة

لفظ المعجزة مأخوذ من العجز المقابل للقدرة، والإعجاز في اللغة إثبات العجز، وتسمى المعجزة معجزة لأن البشر يعجزون عن الإتيان بمثلها لأنها أمر خارق للعادة.

معنى المعجزة في الشرع

أمر خارق للعادة يظهره الله تعالى على يدي مدعي النبوة وفق مراده؛ تصديقًا له في دعواه مع عجز جميع المكلفين عن المعارضة.

وقد اشتمل هذا التعريف على سبعة شروط هي:

١- أن المعجزة أمر، والأمر يشمل القول والفعل والترك؛ فالمعجزة قد تكون قولًا كالقرآن، وقد تكون فعلًا مثل نبع الماء من بين أصابع النبي ﷺ، وقد تكون تركًا مثل عدم إحراق النار لسيدنا إبراهيم عليه السلام، فعدم إحراق النار هو ترك النار لخاصية الإحراق فيها.

٢- أن المعجزة خارقة للعادة أي القوانين التي جرى عليها الكون، ولا تخضع المعجزة لتعلم أو تعليم من البشر، وليس لها قواعد تُعرف.

وخرج بهذا القيد السحر والشعوذة، فهي تُعرف بالتعليم، ولها قواعد يمكن الإلمام بها.

٣- أن المعجزة أمر الله تعالى وحده، وهي مختصة به سبحانه، لا دخل لبشر فيها فليست مما تتعلق به قدرة العباد وإرادتهم بحيث يأتون بها متى شاءوا كسائر أفعالهم الاختيارية يقول تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْآيَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾[1] فهي من شئون الله تعالى يجريه على أيدي الرسل متى شاء إما بغير كسب كالقرآن وعصا موسى وإما مقارنة لكسبٍ ما منهم يأتونه بإذنه ليس له من التأثير في خرق العادة إلا الصورة كإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى، فالمعجزات ليست من فعل الأنبياء وإنما هي فعل الله على أيدي الأنبياء.

٤- أن المعجزة تقع على يدي مدعي النبوة حال دعواه أي أن تكون مقارنة لدعوى الرسالة؛ وذلك لأن تصديق الرسول قبل دعوى الرسالة لا يُعقل، وما حدث لبعض الأنبياء قبل دعوى الرسالة مثل تظليل الغمام للرسول ﷺ وتكلم عيسى في المهد فهو من الإرهاص وتأسيس النبوة.

٥- أن المعجزة تقع وفق مراد النبي، فلو قال: معجزتي إحياء الموتى فحصل على يده خارق آخر كرفع الجبل فليس هذا دليلًا على نبوته؛ لأن هذا الأمر الخارق للعادة على غير مراده.

---

(١) العنكبوت: ٥٠.

وذكر علماء التاريخ أن مسيلمة الكذاب كان يتشبه بالنبي - ﷺ - فلما بلغه أن رسول الله بصق في بئر فكثر ماؤه بصق هو في بئر فاختفى ماؤه بالكلية، وفي رواية أخرى فصار ماؤه شديد الملوحة.

فما حدث من مسيلمة لا يسمى معجزة لأنه على غير مراده، وإنما يسمى إهانة، أراد الله بها إظهار كذبه..

٦- أن المعجزة تصدق مدعي النبوة؛ فمتى وقعت المعجزة على النحو السابق علم منها يقينًا أن الله تعالى يؤيد هذا النبي ويحمله رسالة يجب التصديق بها والعمل بمقتضاها..

٧- أن جميع المكلفين يقفون أمام المعجزة حيارى عاجزين، لا يستطيعون الإتيان بمثلها، ومهما حاولوا فهم عاجزون عن تقليدها، وهذا التحدي قد يكون صريحًا في مواجهة المكذبين كما في معجزتي العصا واليد لموسى عليه السلام؛ قال تعالى: ﴿ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِءَايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ۝ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴾[1].

وكما في معجزة القرآن الكريم؛ قال تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾.

---

(١) الأعراف: ١٠٦-١٠٨.

وجمهور علماء العقيدة على أن المعجزة تدل على صدق الرسول في دعواه أنه رسول الله إلى خلقه لا فرق في ذلك بين الموجودين في زمن الرسول والغائبين.

نماذج من المعجزات

معجزة نبي الله صالح

أرسل الله تعالى صالحًا ﷺ إلى قبيلة ثمود بين الحجاز والشام، فدعاهم إلى عبادة الله الواحد الأحد، وجاءهم بآية بينة تدل على صدقه هي ناقة خصَّها الله بخوارق العادات، إذ خرجت من صخرة صماء، وكانت ناقة عُشَراء طويلة، وأخذ عليهم نبيهم العهد أن يتركوها تأكل في أرض الله من غير سوء ولا أذى، وأن يكون الماء قسمة بينهم وبينها، وفي يوم شربها يحلبون منها لبنًا خالصًا يكفيهم جميعًا، ويكتفون به عن الماء.

ولكن القوم طغوا وتكبروا واستمر أكثرهم على كفرهم وإنكارهم نعم الله، ولم يدركوا الإعجاز الإلهي في الناقة فضلًا عن كفرهم بآلاء الله ونعمه التي لا تحصى، قال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾[1].

---

(١) الأعراف: ٧٤.

وهنا انبعث أشقاهم وهو قدار بن سالف فقد ذبح هذه الناقة، ووقعت الجريمة مقرونة بالتحدي واستحقت ثمود اللعنة.

قال تعالى: ﴿ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَـٰصَـٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴾[1].

* * *

معجزات موسى عليه السلام

بعث الله تعالى سيدنا موسى عليه السلام إلى فرعون وقومه، وكان للسحر في أرض مصر مكانة عالية، وللسحرة مقام رفيع، فكانت معجزة موسى عليه السلام شيئًا يعلو على السحر.

وعندما أوحى الله إلى سيدنا موسى في طور سيناء جرت عملية تدريب لموسى عليه السلام على المعجزة التي سيقدمها إلى فرعون وقومه:-

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا

---

(١) الأعراف: ٧٨.

وَٱضۡمُمۡ ٱلۡأُولَىٰ ﴿٢١﴾ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخۡرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا ٱلۡكُبۡرَى﴾[1].

فكانت هنا معجزتان:

الأولى: انقلاب العصا حية حقيقية تسعى..

الثانية: تلألؤ يد موسى السمراء كأنها مصباح منير..

وعادت الأمور إلى طبيعتها بعد إجراء هذه التجربة العملية، وتحمل موسى عليه السلام أمانة البلاغ عن الله ﷻ إلى فرعون وقومه، وذهب إليه وعرض عليه الرسالة مقرونة بهاتين المعجزتين قال تعالى: ﴿**قَالَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكَ بِشَيۡءٖ مُّبِينٖ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأۡتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلۡقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ**﴾[2] وبيَّن له أصول الدين ودلائل القدرة الإلهية ومعالم الوحي.

لكن فرعون عاند وظن أن الأمر منازعة لسلطته وتوهم أن معجزة موسى لون من السحر؛ فبدأ يجمع كل سحار عليم على أرض مصر وجمعهم ليوم الزينة وهو يوم عيد وفاء النيل، ووعدهم بالأجر الكبير وبتقريبهم إلى مجلسه، والتقى الجمعان وألقى سحرة فرعون حبالهم وعصيهم، وقالوا: بعزة فرعون إنا لنحن

---

(١) طه: ١٧-٢٣.

(٢) الشعراء: ٣٠-٣٣.

الغالبون، وألقوا حبالهم وسحروا أعين الناس: قَالَ﴿ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾[1].

وتقدَّم موسى عليه السلام مؤيدًا من الله ﷻ، وألقى عصاه فتحولت بقدرة الله إلى حية كبيرة تلتهم حبال سحرة فرعون وعصيهم، وعندئذ أدرك السحرة الفرق بين فعل الخالق وفعل الخلق ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾[2].

وذكر الله تعالى سبع آيات في سورة الأعراف؛ ذكر تعالى أنه أصاب بها قوم فرعون؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ فَإِذَا﴿١٣٠﴾ جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ فَأَرْسَلْنَا﴿١٣٢﴾ عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾[3].

---

(١) الأنفال: ٨.

(٢) طه: ٧٠.

(٣) الأعراف: ١٣٣.

فهذه سبع آيات أيد الله بها موسى وأظهرها لقومه وجعلها إنذارًا لهم عسى أن يرجعوا إلى الرشد ويسرعوا إلى الإيمان.

١ - **السنون**، وهي شدة الجدب والقحط بسبب قلة مياه النيل وانحباس المطر عن أرض مصر.

٢ - **نقص الثمرات**.

٣- **الطوفان**، إما بزيادة منسوب المياه في نهر النيل، أو بتتابع المطر حتى أهلك الزرع.

٤ - **الجراد**، ومن شأنه أنه إذا اجتاح أرضًا فإنه يأكل الزرع والثمار.

٥ - **القمل**، وهي حشرات تؤذي الناس في أجسادهم، وتدع الناس بلا راحة في نوم ولا قدرة على عمل..

٦ - **الضفادع**، وإذا كثرت في مكان أصمَّت الآذان، ولوثت الطعام، ونغصت على الناس معيشتهم.

٧- **الدم**، الذي يتحول الماء إليه عند شربه، أو الذي يسيل من أنوفهم بلا انقطاع.

فهذه سبع آيات، إذا أضفنا إليها العصا واليد كانت تسعًا، وهي المرادة بقوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ**﴾[1].

---

(١) الإسراء: ١٠١.

كما نرى أن هذه الآيات السبع كانت استجابة إلهية لدعوة موسى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾[1].

ولما كذب القوم بالآيات كلها أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، وأغرق الله فرعون ومن معه جميعًا وجعلهم عبرة لمن بعدهم.

وهناك آيات أخرى تجلت لبني إسرائيل أثناء عبورهم وعقب نجاتهم واستقرارهم في سيناء، منها:

١- **انفلاق البحر**، وحبس الماء على الجانبين، وتسوية طريق بينهما لعبور بني إسرائيل ثم إطباق الماء على فرعون وجنوده..

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾[2].

---

(١) يونس: ٨٨.

(٢) الشعراء: ٦٣.

٢- **المن والسلوى**، وهو طعام امتن الله به على بني إسرائيل في التيه من غير عمل ولا تعب، فكان ينزل عليهم المن أشد بياضًا من اللبن وأحلى من العسل، ويصل إليهم طائر السلوى يشبه السمان أو الحمام.

٣- **الغمام**، الذي أظل بني إسرائيل يقيهم الحر والبرد.

قال الله تعالى: ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[1].

٤- تفجير الماء من الحجر عيونًا بعدد أسباط بني إسرائيل.

قال تعالى: ﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾[2].

- والمراد بكلمة الحجر في الآية مطلق حجر؛ فحيثما كانوا ضرب موسى بعصاه أي حجر، فيخرج منه الماء، ثم يضربه فييبس، وهذا هو الراجح.

٥- **قصة البقرة** وذلك حين اختلف بنو إسرائيل في قتيل لم يعلم قاتله، فأوحى الله إليهم على لسان موسى ﷺ أن اذبحوا بقرة واضربوه ببعضها فأحياه الله وأخبر بقاتله..

---

(١) البقرة: ٥٧.

(٢) البقرة: ٦٠.

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ۖ وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[1].

٦- **نتق الجبل** بمعنى رفعه فوق رءوس بني إسرائيل حين تمردوا على شريعة موسى ﷺ، وصار كأنه ظُلَّة، وأوشك أن يدق أعناقهم ويسوي بهم الأرض فسارعوا إلى التوبة وأعلنوا ولاءهم للدين فكشف الله ما نزل بهم وعفا عنهم..

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[2].

والجبل هو جبل طور سيناء.

ومع ذلك فإن بني إسرائيل آثروا الضلالة، وكفروا بأنعم الله فأذاقهم الله الخزي في الدنيا وكتب عليهم العذاب في الآخرة..

* * *

معجزات داود عليه السلام

منح الله داود ﷺ آيات ومعجزات دالة على نبوته، وتتناسب مع كونه نبيًّا ملكًا ورسولًا قائدًا، ومن ذلك:

---

(١) البقرة: ٧٢-٧٣.

(٢) الأعراف: ١٧١.

١- تسخير الجبال والطير لترديد أذكاره وتسابيحه ودعائه، قال تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾[١].

ولقد اشتهر داود بترتيل الزبور الذي أنزله الله عليه، وهو كتاب مشتمل على حكم ومواعظ، ومنح الله داود صوتًا عذبًا جميلًا يستوقف الطير السابحات في الفضاء لتردد معه تسبيحاته، وسخر الله له الجبال الشامخات ترجِّع معه وتسبح تبعًا له، وبخاصة في أول النهار وآخره قال تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾[٢].

وقد صح في الحديث أن رسول الله ﷺ قال لأبي موسى الأشعري: «**لقد أوتيت مزمارًا من مزامير آل داود**»[٣]، وذلك لأنه كان جميل الصوت.

٢- إلانة الحديد.. قال تعالى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[٤].

---

(١) الأنبياء: ٧٩.

(٢) ص: ١٨-١٩.

(٣) رواه مسلم.

(٤) سبأ: ١٠-١١.

فكان الحديد في يده كالعجين يصرفه كيف يشاء من غير آلات وأفران نارية تصهره، بل بمجرد وضع اليد عليه يصير منصهرًا، وهذا هو الأمر الخارق للعادة الذي يعد معجزة.

وعلَّم الله تعالى داود ﷺ صناعة الدروع التي تستخدم في الحروب من هذا الحديد المنصهر.

فالسابغات في الآية الكريمة هي الدروع السابغة التي تستر بدن المقاتل، والتقدير في السرد هو إحكام الصنعة ودقتها فالسرد هو النسج، قال تعالى: ﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴾[1].

* * *

معجزات سليمان ﷺ

ورث سليمان النبوة والحكمة عن أبيه داود ﷺ، وجعله الله نبيًّا، وأعطاه ملكًا لم يلحقه فيه أحد.

وكانت آيات نبوته ومعجزات اصطفائه ذات صبغة متفردة تتناسب مع عطاء النبوة والملك.

ومن هذه الآيات البينات:

---

(١) الأنبياء: ٨٠.

١- تعليم منطق الطير، فكان يعرف لغة الطيور والحيوانات فيما بينها، وهذا شيء لم يعطه أحد من البشر، ولا يكون إلا معجزة لنبي؛ يظهر ذلك من مخاطبة النملة لقبيلتها كما في قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَـٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٨ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا ﴾[1].

ويظهر أيضًا من محاورة الهدهد مع سليمان؛ قال جل شأنه: ﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيۡرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ أَمۡ كَانَ مِنَ ٱلۡغَآئِبِينَ ٢٠ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ٢١ فَمَكَثَ غَيۡرَ بَعِيدٖ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ ﴾[2].

٢- تسخير الرياح بحيث يصرفها سليمان ﷺ كما يشاء، وكانت هذه الرياح تحمله إلى مسافات بعيدة..

قال تعالى: ﴿ وَلِسُلَيۡمَـٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهۡرٞ وَرَوَاحُهَا شَهۡرٞۖ ﴾[3].

---

(١) النمل: ١٨-١٩.

(٢) النمل: ٢٠-٢٢.

(٣) سبأ: ١٢.

أي أن الله سخر لسليمان الريح مسيرها من الغداة إلى منتصف النهار مسيرة شهر ورواحها من منتصف النهار إلى الليل مسافة شهر كذلك.

وقال: ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾(1).

٣-إسالة عين نحاسية يستخدمها عمال سليمان عليه السلام في أعمال البناء والصناعات؛ قال تعالى: ﴿ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ﴾(2).

٤- تسخير الجن؛ يتحكم فيهم سليمان، وينفذون أوامره ويشيدون له المباني الضخمة والعجيبة ويصنعون له أدوات المائدة وأجهزة الطهي وكل ما يحتاج إليه.

قال الله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ﴾(3).

---

(1) ص: ٣٦.

(2) سبأ: ١٢.

(3) سبأ: ١٣.

وقال تعالى: ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ ۝٣٧ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ﴾[1].

فالآية تدل على أنه كان هناك نوعان من الشياطين المسخرين: نوع مسخر في البناء والتشييد للمحاريب وهي المساجد والقصور، وللتماثيل النحاسية والحديدية وغيرها، وللأحواض الكبيرة التي يختزن فيها الماء، وللأواني الواسعة الثابتة في أماكنها من أجل الطهي لجنود سليمان وجيشه.

- ونوع مسخر للغوص في البحار يستخرج اللآلئ والجواهر.

ومن تمرد على الأمر وخرج على طاعة سليمان عوقب بالحبس والقيد والإذلال.

٥- إحضار عرش ملكة سبأ من اليمن إلى فلسطين في طرفة عين؛ فلما علم سليمان بعزم ملكة سبأ على القدوم إليه في عاصمة دولته في فلسطين جمع رجاله وعرض عليهم أمر إحضار العرش ليكون دليلًا قويًّا على أنه نبي ملك يبلغ دعوة ربه وليس له أي أطماع.

قال تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ۝٣٨ قَالَ عِفۡرِيتٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٞ ۝٣٩ قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ

---

(١) ص: ٣٧-٣٨.

إِلَيْكَ طَرْفُكَۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾[1].

وتعددت كلمة المفسرين فيمن أحضر عرش ملكة سبأ، والرأي الذي نرجحه هو ما رجحه الإمام الفخر الرازي أنه سليمان نفسه.

* * *

معجزات عيسى عليه السلام

بعث الله عيسى ابن مريم رسولًا إلى بني إسرائيل؛ يدعوهم إلى التوحيد الخالص، ويكمل رسالة موسى، وهو آخر الرسل الذين أرسلوا إلى بني إسرائيل، وأيده الله بمعجزات خمس جاءت في قوله تعالى: ﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم

---

(١) النمل: ٣٨- ٤٠.

بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾[1].

فقد جمع هذا النص الشريف خمس معجزات هي:

١ -﴿ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ ﴾.

والمقصود بالخلق في الآية هو التصوير وليس بمعنى الإنشاء والاختراع فذلك لله وحده فكان عيسى يصوّر من الطين ما هو على صورة الطير وهيئته وينفخ فيه فيطير بإذن الله.

٢، ٣- ﴿ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ ﴾.

الأكمه: هو من ولد أعمى، والأبرص: هو المصاب بمرض جلدي يذهب دموية الجلد ويصيره شديد البياض.

وهذان المرضان مما يحار في علاجهما الأطباء، وكان عيسى عليه السلام لا يستعمل دواءً وإنما كان يدعو الله سبحانه فيستجيب له، وتلك هي المعجزة.

٤- ﴿ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ ﴾.

منح الله المسيح معجزة خارقة للعادة، وهي إحياء الموتى فيناديهم من قبورهم فيخرجون إلى أهليهم ثم يقضى عليهم متى أراد الله فيموتون.

٥- ﴿ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ ﴾.

---

(١) آل عمران: ٤٩-٥١.

من جملة معجزات المسيح إخباره بما غاب عنه وأخفاه الناس مما يأكلون أو يدخرون في بيوتهم، ولم يكن ذلك كهانةً أو تنجيمًا وإنما ذلك بوحي الله إليه.

* * *

معجزات النبي محمد ﷺ

معجزاته ﷺ واضحات مشهورات، وما كان منها معلومًا بالقطع منقولًا بالتواتر[1] - كالقرآن الكريم - فلا شك في كفر منكره، وما لم يكن منها كذلك فإن اشتهر - كنبع الماء من بين أصابعه ﷺ - فُسِّق منكره، وإن لم يشتهر وثبت بطريق صحيح أو حسن عُزِّر[2] منكره.

* * *

(١) التواتر: خبر أقوام عن أمر محسوس يستحيل تواطؤهم على الكذب عادة.

(٢) التعزير: عقوبة لم يرد بها نص وإنما يقدرها الحاكم أو القاضي بحسب المصلحة.

إن دلائل نبوته ﷺ على قسمين: معنوية وحسية.

أما المعنوية فمن أعظمها القرآن الكريم، ومنها أخلاقه الكريمة وأوصافه العظيمة؛ فسيرة الرسول تجسد لنا إنسانًا ليس مثله إنسان فهي تمثل لنا إنسانًا طاهرًا صادقًا أمينًا متواضعًا، عظيمًا وقد وصفته السيدة عائشة حينما سئلت عن خلقه فقالت: «كان خلقه القرآن»[1] ومدحه الله في كتابه فقال: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾[2] ففي صبيحة عرس الربيع بنت معوذ الأنصارية جلس جاريات يضربن بالدف، وجعلن يذكرن آباءهن من شهداء بدر، حتى قالت جارية منهن: (وفينا نبي يعلم ما في غد) فقال ﷺ: «**لا تقولي هكذا وقولي ما كنت تقولين**»[3].

وقد كان عبد الله بن أبي سرح أحد النفر الذي استثناهم النبي من الأمان يوم فتح مكة لكثرة إيذائهم للمسلمين وصدهم عن الإسلام فلما جاء إلى النبي ﷺ لم يبايعه إلا بعد أن تشفع له عثمان ﷺ ثلاثًا، ثم أقبل ﷺ على أصحابه فقال: «**أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حين كففت يدي عن بيعته فيقتله؟** فقالوا: ما

---

(١) رواه مسلم.

(٢) القلم: ٤.

(٣) رواه البخاري.

ندري ما في نفسك، ألا أومأت إلينا بعينك؟ فقال: «**إنه لا ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين**»[1].

ولما حدث له بغزوة أُحُد ما حدث قيل له: لو دعوت عليهم فقال الرسول العظيم: «**إني لم أبعث لعّانًا ولكني بعثت داعيًا ورحمة، اللهم ارحمهم**» ودعا لهم.

وقد قال عبد الله بن سلام: «لما قدم رسول الله المدينة انجفل[2] الناس إليه، وقيل: قدم رسول الله، قدم رسول الله، فجئت في الناس لأنظر إليه، فلما استثبت وجه رسول الله عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب»[3].

أما معجزات النبي ﷺ الحسية فلا تحصى حتى أوصلها بعضهم إلى ألف معجزة، يقول بعض العلماء: إن جميع ما أوتيه الرسول ﷺ من الآيات الحسية المادية التي لم تدخل في إطار التحدي بها ثابتة مروية بروايات مسندة، وهي- وإن اختلفت في أسانيدها قوة وصحة- تعد في جملتها بالغة مبلغ التواتر المعنوي القاطع الذي لا يستطيع أن يجادل في مجموعه مجادل أو ينكره منكر، وهذه بعض منها.

---

(١) رواه أبو داود والنسائي.

(٢) انجفل الناس إليه: أي ذهبوا مسرعين إليه.

(٣) رواه الترمذي بسند صحيح.

نبع الماء

عن أنس ﷺ أنه قال: «رأيت رسول الله ﷺ، وحانت صلاة العصر والتمس الناس الوضوء فلم يجدوه، فأتي رسول الله ﷺ بوضوء فوضع يده في ذلك الإناء؛ فأمر الناس أن يتوضئوا منه، فرأيت الماء ينبع من أصابعه فتوضأ الناس حتى توضئوا من عند آخرهم»[1] قال راويه: «قلنا لأنس: كم كنتم؟ قال: كنا ثلاثمائة».

ونبع الماء كان في غزوة تبوك، وفي يوم الحديبية، وفي غزوة بواط، وفي مواطن كثيرة.

قال الإمام القرطبي: قصة نبع الماء من بين أصابعه قد تكررت منه ﷺ في عدة مواطن، في مشاهد عظيمة، ووردت من طرق كثيرة يفيد مجموعها العلم القطعي المستفاد من التواتر المعنوي.

انشقاق القمر

عن ابن مسعود أنه قال: «بينما نحن مع رسول الله ﷺ إذ انشق القمر فلقتين فكانت فلقة وراء الجبل وفلقة دونه؛ فقال لنا رسول الله ﷺ: «**اشهدوا**»[2] وقال كفار قريش: هذا سحر؛ فابعثوا إلى أهل الآفاق أَرَأَوْا مثل هذا أم لا؟ فأخبر أهل الآفاق بأنهم رأوه منشقًّا، فقال كفار قريش: هذا سحر مستمر، وقد انشق وهو في السماء».

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه البخاري.

وهذه المعجزة قد أثبتها القرآن صراحة في قوله تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ۝ وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ﴾[1].

وذكره في القرآن حكم بتواتره، وقد أجمع المفسرون وأهل السنة على وقوعه.

تسليم الحجر والشجر عليه

ومن معجزاته ﷺ تسليم الحجر والشجر عليه؛ فعن علي ﷺ قال: «كنت أمشي مع النبي ﷺ في مكة فخرجنا في بعض نواحيها فما استقبله شجر ولا حجر إلا قال: السلام عليك يا رسول الله»[2].

تسبيح الحصى والطعام

ومنها تسبيح الحصى في كفه؛ فعن أبي ذر أنه قال: «كنا جلوسًا عند رسول الله ﷺ فأخذ كفًّا من حصى فسبحن في يده حتى سمعنا التسبيح، ثم صبهن في يد أبي بكر فسبحن ثم في يد عمر فسبحن، ثم في يد عثمان فسبحن، ثم صبهن في أيدينا فما سبحن»[3].

---

(١) القمر: ١-٢.

(٢) رواه الترمذي.

(٣) رواه البزار والطبراني.

ومن حديث ابن مسعود قال: «إنكم تعدون الآيات عذابًا، وكنا نعدها بركة على عهد رسول الله ﷺ، قد كنا نأكل مع النبي ونحن نسمع تسبيح الطعام، وأتي النبي بإناء فجعل الماء ينبع من بين أصابعه، فقال النبي ﷺ: «**حي على الطهور المبارك، والبركة من الله حتى توضأنا كلنا**»[1].

حنين الجذع

وأما حنين الجذع[2] فحديث مشهور متواتر، وهو أنه: (كان ﷺ قبل أن يصنع له المنبر يخطب عنده، فلما صنع له المنبر انتقل إليه، فسمع له كل من كان في المسجد حنينًا وصوتًا عظيمًا حتى كاد أن ينشق أسفًا على فراقه ﷺ فضمه إليه، فصار يئن أنين الصبي الذي تضمه أمه إليها، فلما التزمه سكت، ثم قال ﷺ: «**والذي نفس محمد بيده لو لم ألتزمه لما زال هكذا حتى تقوم الساعة حزنًا على رسول الله ﷺ**» فأمر به فدفن تحت المنبر).

---

(١) رواه البخاري.

(٢) الجذع: هو ساق النخلة.

ومنها أحاديث إبراء المرضى ورد ما انفصل من أعضاء الإنسان مما لا يمكن إعادته في العادة إلى مكانه صحيحًا، ومن أمثلته رد عين قتادة ﷺ حين سالت على خده، وذلك أنه كان يتقي بوجهه السهام عن رسول الله ﷺ في غزوة أحد؛ فأصاب عينه سهم فسالت على خده فأخذها بيده وسعى بها إلى رسول الله ﷺ فلما رآها في كفه دمعت عيناه وقال: «**إن شئت صبرت ولك الجنة، وإن شئت رددتها، ودعوت الله لك فلم تفقد منها شيئًا**»، فقال: يا رسول الله إن لي امرأة أحبها وأخشى إن رأتني أن تقذرني فأخذها رسول الله ﷺ وردها إلى موضعها: وقال: «**اللهم اكسه جمالًا**» فكانت أحسن عينيه وأحدَّ نظرًا، وكانت لا ترمد إذ رمدت الأخرى[1].

وجاء أن سلمة بن الحكم أصيب يوم خيبر في ساقه بضربة، فنفث[2] فيها رسول الله ﷺ ثلاث نفثات فما اشتكاها قَطْ[3].

---

(١) روي موصولًا عن ابن عدي والبيهقي ومرسلًا عن ابن إسحاق.

(٢) أي: نفخ.

(٣) رواه البخاري.

تنكيس الأصنام بالإشارة

عن ابن عباس قال: «كان حول الكعبة ثلاثمائة وستون صنمًا مثبتة إلى الرخام بالرصاص، فلما دخل ﷺ عام الفتح جعل يشير إليها بقضيب كان في يده، ويقول: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[1] فما أشار لوجه صنم إلا وقع لقفاه، ولا لقفاه إلا وقع لوجهه حتى ما بقي منها صنم فأمر بإخراجها»[2].

إجابة الدعاء

وعن أنس قال: «قالت أمي: يا رسول الله، خادمك أنس، ادعُ الله له، فقال: «اللهم أكثر ماله وولده، وبارك له فيما أعطيته» ومن رواية عكرمة قال أنس: **«فوالله إن مالي لكثير، وإن ولدي يتعادُّون على نحو المائة اليوم»** وفي رواية: **«حتى ما أعلم أحدًا أصاب من رخاء العيش ما أصبتُ، ولقد دفنت بيدي هاتين مائة من ولدي؛ لا أقول سقطًا ولا ولد ولد»**[3].

---

(١) الإسراء: ٨١.

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه البخاري.

ثم إن أهل المدينة فزعوا مرة؛ فركب ﷺ فرسًا لأبي طلحة بطيء السير، فلما رجع قال: وجدنا فرسك بحرًا» وكان بعد ذلك لا يجاريه فرس[1].

ففي الحديث معجزة للنبي لكونه ركب فرسًا بطيئًا فصار بعد ذلك لا يطيق فرس الجري معه.

وفي رواية سلمة بن الأكوع قال: «غزونا مع رسول الله ﷺ حُنينًا فولَّى صحابة رسول الله ﷺ فلما غشوا رسول الله ﷺ نزل عن البغلة ثم قبض قبضة من تراب الأرض ثم استقبل به وجوههم فقال: «**شاهت الوجوه**» فما خلف الله منهم إنسانًا إلا ملأ الله عينيه ترابًا بتلك القبضة فولوا مدبرين فهزمهم الله وقسم رسول الله ﷺ غنائمهم بين المسلمين»[2].

إخباره بالأمور المستقبلية

أخبر النبي عن بعض ما سيحدث في المستقبل على أنه ﷺ ما تنبأ بشيء إلا وقد تحقق كما أخبر، وما لم يقع ينتظر وقته المقدر له، وإن في الإخبار عما سيقع في المستقبل من حيث كثرته ووقوعه على نحو ما جاءت به الأخبار نفي شبهة الرجم بالغيب والظن مما يدل على نبوة سيدنا محمد الصادقة.

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه مسلم.

ومن نماذج ذلك:

عن جابر بن سمرة: «**إذا هلك كسرى**[1] **فلا كسرى**»[2]، وعن أبي هريرة ﷺ قال رسول الله: «**إذا مات كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر**[3] **فلا قيصر بعده، والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله**»[4].

ومن هذا القبيل إخباره ﷺ بفتح بيت المقدس والشام والعراق، وظهور الأمن حتى ترحل المرأة من الحيرة إلى مكة لا تخاف إلا الله[5].

كذا إخباره ﷺ أن الطاعون لا يدخل المدينة، ولا يدخلها رعب الدجال، وأنها لا يريدها أحد بسوء إلا أذابه الله ذوب الملح[6].

---

(١) كسرى: ملك الفرس.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) قيصر: ملك الروم.

(٤) رواه البخاري ومسلم.

(٥) صحيح البخاري.

(٦) رواه البخاري ومسلم.

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يدخل المدينة المسيح ولا الطاعون**»[1]. يقول الحافظ ابن حجر في كتابه «فتح الباري»: هذا من المعجزات المحمدية، إذ امتنع الطاعون عن المدينة هذه الدهور الطويلة.

عن أنس ﷺ قال: «كان رسول الله ﷺ يدخل على أم حرام بنت ملحان [2] فتطعمه، وكانت تحت عبادة بن الصامت [3]، فدخل عليها رسول الله ﷺ فأطعمته، وجعلت تفلي [4] رأسه فنام رسول الله ﷺ ثم استيقظ وهو يضحك، قالت: فقلت: وما يضحكك يا رسول الله؟ قال: «**ناس من أمتي عُرِضوا علي غزاة في سبيل الله يركبون ثبج** [5] **هذا البحر ملوكًا على الأَسِرَّة**» أو مثل الملوك على الأسرة- شك إسحاق- قالت: فقلت: يا رسول الله ادعُ الله أن يجعلني منهم فدعا لها رسول الله ثم وضع رأسه ثم استيقظ وهو يضحك فقلت: وما يضحكك يا رسول الله؟ قال: «**ناس من أمتي عرضوا عليّ غزاة في سبيل الله**» كما

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) خالته من الرضاع.

(٣) أي كانت زوجته.

(٤) تفلي: تبحث في شعره.

(٥) أي وسط البحر.

قال في الأول، قالت: فقلت: يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم؛ قال: «**أنت من الأولين**». فركبتْ البحر في زمن معاوية ﷺ فصرعت عن دابتها حين خرجت من البحر فهلكت»[1].

إن أول غزوة في البحر في سبيل الله غزاها معاوية ﷺ سنة سبع وعشرين مع جمع من الصحابة وفَتَح قبرص.

قال ابن حجر: «في هذا الحديث ضروب من إخبار النبي ﷺ بما سيقع فوقع كما قال؛ منها إعلامه ببقاء أمته، وأن فيهم أصحاب قوة وشوكة ونكاية في العدو، وأن أم حرام تعيش إلى ذلك الزمان، وأنه لا تدرك الغزوة الثانية».

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**صنفان من أهل النار لم أرهما: قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات، رءوسهن كأسنمة البُخْت المائلة، لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا**»[2] وقد تحقق هذا؛ إذ هناك غلمان والي الشرط الجلادون، أصحاب السياط وإيذاء الناس؛ فالرجال الذين يوكل إليهم القيام على الأمن هم سبب الإفساد فهم يتحولون إلى ظَلَمة يجلدون ظهور العباد بسياطهم كما هو حال كثير من ديار الإسلام، وهناك النساء الموصوفات في

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) رواه مسلم.

الحديث المتبرجات المشاهَدَات في الشوارع، علمًا بأن هذين الصنفين لم يكونا في عهد النبي ﷺ قطعًا.

وعن عبد الله بن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يكون في آخر أمتي رجال يركبون على السروج كأشباه الرجال، ينزلون على أبواب المساجد نساؤهم كاسيات عاريات على رءوسهن كأسنمة البخت العجاف العنوهن فإنهن ملعونات، لو كانت وراءكم أمة من الأمم لخدمت نساؤكم نساءهم كما يخدمنكم نساء الأمم قبلكم**»(١). فالحديث الشريف يشير إلى السيارات وأحوال نساء كثير من أصحابها.

وعن أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ليأتين على الناس زمان لا يبقى منهم أحد إلا أكل الربا، فمن لم يأكله أصابه من غباره**»(٢) والحديث يصور لنا الواقع الذي نعيشه اليوم إذ عمت المعاملات الربوية من خلال البنوك، فالكثير يأكلون الربا، والقلة القليلة يصيبها من غباره.

وعن أبي مالك الأشعري أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**ليشربن ناس من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها**» وقد تحقق حيث إن ناسًا يشربون الخمر بأسماء أخرى فيطلقون عليها اسم (المشروبات الروحية) مثلًا وغيرها.

---

(١) رواه أحمد في مسنده.

(٢) رواه أبو داود.

وقال ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان وتكون بينهما مقتلة عظيمة دعواهما واحدة**»[1]، والمراد بالفئتين: علي ومن معه، ومعاوية ومن معه، والمقتلة العظيمة كانت بصِفِّين.

وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تقوم الساعة حتى يبعث دجالون كذابون قريب من ثلاثين كل يزعم أنه رسول الله**»[2]، وأخبر الرسول في حديث آخر أن من النساء من سيدعي النبوة؛ فعن حذيفة عن النبي ﷺ قال: «**في أمتي كذابون ودجالون سبعة وعشرون منهم أربعة نسوة وإني خاتم النبيين لا نبي بعدي**»[3]، وقد ظهر من هؤلاء عدد كبير في الماضي؛ ففي عهد الصحابة خرج مسيلمة الكذاب والأسود العنسي وسجاح الكاهنة، وفي عصر التابعين خرج المختار الثقفي مدعيًا النبوة، وفي القرن الماضي ادعى النبوة في إيران الميرزا حسين علي الملقب بالبهاء وآخر من ادعى النبوة شخص يسمى محمود محمد طه من السودان وقد أعدمته الحكومة السودانية في عام ١٩٨٥م بسبب كفره وردته.

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) رواه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط بإسناد صحيح.

القرآن الكريم هو المعجزة العظمى

وأعظم معجزات الرسول ﷺ هو القرآن الكريم آية الرسالة العظمى الخالدة بخلود الحياة؛ معجزة الرسول العقلية الفكرية العلمية التي يجد فيها كل الناس على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم وعلومهم ما يحتاجون إلى معرفته؛ القرآن منهج الحياة المتكامل الذي أتى بأكمل التشريعات التي لا تصلح حياة البشر إلا بها؛ القرآن الذي سمعته الجن فقالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾[1] القرآن ذلك الكتاب الخالد الذي قص أحسن القصص وأصدقها، ونزَّه الله تعالى عن الشريك والشبيه والولد، ونزَّه الأنبياء وطهرهم ومدحهم؛ القرآن الذي يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

الفرق بين المعجزة والسحر

أن السحر يشبه خوارق العادات ولكنه في الحقيقة ليس خرقًا للعادة لأنه يُنال بالتعلم والاكتساب ويُستعان في تحصيله بالتقرب إلى الشيطان بفعل القبائح قولًا كقراءة رقية فيها ألفاظ شرك أو مدح الشيطان، وعملًا كعبادة الكواكب والتزام الجنابة وارتكاب الموبقات، واعتقادًا كاستحسان ما يوجب التقرب إلى الشيطان ومحبته إياه، وهذا لا يحدث في العادة إلا إذا كان بين الساحر والشيطان تناسب في الشر وخبث النفس؛ فإن التناسب والتلاؤم شرط التعاون.

---

(١) الجن: ١-٢.

فالمعجزة خرق للعادة، والسحر ليس خرقًا للعادة بل هو عادة جرت من الله تعالى بترتيب مسببات على أسبابها غير أن تلك الأسباب لم تحصل لكثير من الناس بل للقليل منهم؛ فإذا حصلت على أيدي بعض الناس كانت غريبة في نظر من لم يعرف تلك الأسباب وفي الواقع هي جارية على أسبابها العادية غير أن العارف بتلك الأسباب قليل.

أما المعجزات فليس لها سبب في العادة أصلًا.

والنبي ليس شريرًا فاسقًا بخلاف الساحر.

وأيضًا السحر مختص أثره بمن عُمل له بخلاف المعجزة؛ ففي قصة سيدنا موسى لما اجتمع بسحرة فرعون في يوم الزينة كان صنيع السحرة أنهم سحروا أعين الناس وألقوا حبالهم وعصيهم فانقلبت الحبال والعصي إلى ثعابين يراها الناس ثعابين، ويراها السحرة حبالًا وعِصي، ولما ألقى سيدنا موسى عصاه تحولت إلى حية حقيقية رآها السحرة حية وكذلك رآها موسى وجموع الناس الحاضرين، وعندئذ أدرك السحرة أن هذا ليس من فعل البشر بل من فعل الإله العظيم الذي أرسل موسى فخروا سُجَّدًا لله وقالوا: آمنا برب هارون وموسى.

وكذلك في معجزة انشقاق القمر للرسول ﷺ فقد رآه من كان حاضرًا من أهل مكة وبعض المسافرين ليلًا.

وكذلك قرائن الأحوال التي تفيد العلم القطعي المختصة بالأنبياء الغائبة في حق غيرهم؛ فإننا نجد النبي أفضل الناس نشأة ومولدًا وشرفًا وخلقًا وصدقًا

وأمانة وبعدًا عن الرذائل والقبائح، وكذلك نجد أصحابه في غاية العلم والحكمة والتقوى والبركة كأصحاب الرسول ﷺ.

الإرهاص

الإرهاص: خارق للعادة، يظهره الله قبل بعثة نبي، تأسيسًا للنبوة وتمهيدًا لها، ومن أمثلته ما يلي:

الأول: حماية الكعبة من هجوم الأحباش عام ميلاد النبي محمد- ﷺ- وقد سجّل القرآن هذا الحدث التاريخي في سورة الفيل.

فقال: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن﴾ سِجِّيلٍ[1].

وقد أنقذ الله الكعبة برغم وثنية قريش صيانة للبيت العتيق الذي سيزداد شرفًا وتوقيرًا ببعثة النبي ﷺ.

الثاني: شق صدره ﷺ

من مجموع الروايات التي وردت في ذلك يتضح لنا أن الرسول ﷺ شق صدره في ثلاثة مواطن: في زمن الطفولة وقبل البعثة وعند الإسراء والمعراج.

---

(١) الفيل: ١-٤.

وذكر العلماء حكمة ذلك فقالوا: ما كان في زمن الطفولة فلكي ينشأ على أكمل الأحوال من العصمة وما كان عند البعثة فليتلقى الوحي بقلب طاهر وما كان عند الإسراء والمعراج فلكي يستعد للمناجاة العلوية القدسية.

ونذكر من هذه الروايات ما جاء في صحيح مسلم بسنده عن أنس بن مالك أن رسول الله- ﷺ- أتاه جبريل عليه السلام وهو يلعب مع الغلمان فأخذه فصرعه فشق عن قلبه واستخرج القلب؛ فاستخرج منه عَلَقَة، فقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله في طِست من ذهب بماء زمزم، ثم لأمه ثم أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه يعني- ظِئْره أي مرضعته- فقالوا: إن محمدًا قد قتل؛ فاستقبلوه وهو منتقع اللون، قال أنس: وقد كنت أرى أثر ذلك المِخْيَط في صدره».

الثالث: تسليم الحجر؛ فقد ثبت أن الرسول- ﷺ- قال: «**إني لأعرف حجرًا بمكة كان يسلم علي قبل أن أبعث، إني لأعرفه الآن**»[1].

الرابع: قُبيل تلقي الوحي بستة أشهر مكث- ﷺ- لا يرى رؤيا إلا تحققت كما رآها.

عن عائشة- رضي الله عنها- أنها قالت: «أول ما بدئ به رسول الله- ﷺ- من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح»[2].

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه البخاري.

الخامس: إظلال الغَمام له ﷺ قبل البعثة.

الكرامة

الكرامة في اصطلاح علماء العقيدة: هي أمر خارق للعادة يظهره الله تعالى على يد عبد ظاهر الصلاح غير مدع للنبوة؛ إكرامًا له لولائه لنبي زمانه..

والكرامة لا يدعيها أحد، ولا يُتَحدى بها، وهي تجري بإرادة الله ﷻ ومن غير انتظار..

والمسلم يؤمن بالكرامة للعبد الصالح عمومًا دون ارتباط بشخص معين، وكرامة شخص من الناس لا يرتبط بها إيمان فهي متروكة لمن شاهدها أو نقلت إليه، ومن أصول أهل السنة والجماعة التصديق بكرامات الأولياء وما يجريه الله تعالى على أيديهم من خوارق العادات.

ومن أمثلة الكرامات التي وردت بها نصوص شرعية:

١- رزق الله لمريم في محرابها

قال الله تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[1].

فالمحراب غرفة ملحقة بالمسجد كانت تقيم فيها مريم عليها السلام، ويُشرف عليها زكريا ﵇، الذي يتولى شئونها كلها، ولا يدخل عليها أحد غيره، وبدأ

---

(١) آل عمران: ٣٧.

زكريا يجد أمرًا عجبًا وهو وجود رزق لم يقدمه لها؛ فسألها عن سر وجوده عندها فأشارت إليه قالت: ﴿ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[1].

وقد فسر العلماء هذا الرزق بأنه فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء.

٢- نوم أصحاب الكهف

ما جرى لأصحاب الكهف حيث ضرب الله على آذانهم في الكهف فناموا ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعًا، وحفظ الله أجسامهم تلك الأزمنة الطويلة كما جاء في سورة الكهف.

٣- نداء عمر في المدينة لسارية في الشام

بعث عمر بن الخطاب جيشًا وأَمَّر عليهم رجلًا يدعى سارية بن حصن، وبينما عمر يخطب فجعل يصيح: يا سارية الجبل الجبل فقدم رسول من الجيش فقال: يا أمير المؤمنين لقد لقينا عدونا فهزمونا فإذا بصائح يصيح: يا سارية الجبل فأسندنا ظهورنا إلى الجبل فهزمهم الله تعالى[2].

٤- سلامة أجساد الموتى

---

(١) آل عمران: ٣٧.

(٢) رواه البيهقي في دلائل النبوة.

عن جابر ﷺ قال: «لما حضر أُحد دعاني أبي من الليل، فقال: ما أُراني إلا مقتولًا في أول من يُقتل من أصحاب النبي- ﷺ- وإني لا أترك بعدي أعز عليَّ منك غير نفس رسول الله- ﷺ-وإن عليَّ دينًا فاقضِ، واستوصِ بأخواتك خيرًا، قال جابر: فأصبحنا فكان أول قتيل، ودفن معه آخر في قبر، ثم لم تطب نفسي أن أتركه مع الآخر فاستخرجته بعد ستة أشهر؛ فإذا هو كيوم وضعته غير هُنَيَّة[1] في أذنه»[2].

المعونة

المعونة عند علماء العقيدة: أمر خارق للعادة يظهره الله تعالى على يد عبد مستور الحال، لا يُعرف عنه كبيرة ولا إصرار على صغيرة، وليس من المشهورين بالعلم أو العبادة.

ويقع هذا الأمر الخارق تخليصًا للعبد من شدة نزلت به؛ وذلك كإنسان أوشك على الموت ويئس منه الأطباء، وفجأة يعافيه الله تعالى ويشفيه..

الإهانة

الإهانة: أمر خارق للعادة يظهره الله تعالى على يد فاسق مدع للنبوة على عكس مراده تكذيبًا له.

---

(١) هنية: أي شيء يسير.

(٢) رواه البخاري في صحيحه.

كما وقع لمسيلمة الكذاب الذي ادعى النبوة فإنه تَفَل في عين أعور لتشفى فعميت السليمة، وتفل في بئر لتعذب مياهه فأصبح مالحًا، وأُتي بولدان يبرك عليهم فمسح رءوسهم فمنهم من قرع رأسه ومنهم من لثغ لسانه.

فهذه الخوارق للعادات وقعت على غير مراد صاحبها فتسمى إهانة؛ أراد الله بها إظهار كذبه للناس.

الاستدراج

الاستدراج عند علماء العقيدة: أمر خارج للعادة يظهره الله تعالى على يد فاسق، خديعة له ومكرًا به.

كما سيحصل للمسيخ الدجال- الذي سيدعي الألوهية- من أمور تخرج عن نطاق القوانين الكونية المعتادة..

ومن الأحاديث الواردة في هذا الشأن عن أبي سعيد الخدري قال: حدثنا رسول الله- ﷺ- يومًا حديثًا طويلًا عن الدجال؛ فيما حدثنا قال: «**يأتي وهو محرم عليه أن يدخل نقاب**[1] **المدينة فينتهي إلى بعض السباخ التي تلي المدينة، فيخرج إليه يومئذ رجل هو خير الناس أو من خير الناس، فيقول له: أشهد أنك الدجال الذي حدثنا رسول الله- ﷺ- حديثه، فيقول الدجال: أرأيتم إن قتلتُ هذا ثم**

(١) طرق.

أحييتُه أتشكون في الأمر؟ فيقولون: لا، قال: فيقتله ثم يحييه، فيقول حين يحييه: والله ما كنت فيك قط أشد بصيرة مني الآن، فيريد الدجال أن يقتله فلا يسلط عليه»[1].

ولا يغتر به إلا رعاع الناس لسد الحاجة والفقر رغبة في الطعام والشراب أو خوفًا من أذاه، أما أهل التوفيق فلا يغترون به ولا يخدعون.



---

(١) رواه مسلم.

الفصل التاسع

رسالة سيدنا محمد ﷺ

أدلة إثباتها- عمومها- عدم نسخها

رسالة سيدنا محمد ﷺ

قبل بعثة النبي محمد ﷺ كانت القبائل العربية أسيرة الشهوات فاسدة العقيدة سيئة الأخلاق تسفك الدماء وتستبيح الأعراض والأموال وتئد البنات وتعبد الأصنام، وكان كل من دولة الفرس والروم في وضع متردٍّ فقد استمر القتال بينهما زمنًا طويلًا يأكل قوي كل دولة منهما الضعيف وانغمس الرؤساء في الملذات وضلت الأفراد في العقائد ودلس رؤساء الأديان دينهم.

أما اليهود والنصارى فقد تصرف رؤساؤهم في كتبهم فحرفوها وبدلوها وأوهموا الناس أنها من عند الله؛ فكانت أحوال الناس في هذا الزمان في اضطراب عظيم؛ فكان من العدل والرحمة ألا تظل شئونهم كذلك؛ لهذا اقتضت حكمة الله ورحمته أن ينبه القوم من غفلتهم بإرسال نبي بدين سماوي يكفل سعادتهم؛ فأرسل الله إليهم محمدًا ﷺ فأرشدهم إلى الإسلام وما اشتمل عليه من التعاليم والأحكام العظيمة قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ

وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾[1] وقال: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ ﴾[2] وظهر النبي وأخبر أنه مرسل من الله بشيرًا ونذيرًا، وكانت أوصافه الحميدة وأخلاقه العظيمة وما عرفه عنه قومه كافيًا في الدلالة على صدقه ولكن هناك من عاند فجحد رسالته، ونحاول أن نوضح إبطال إنكار نبوته ﷺ.

الأدلة على صدق دعواه الرسالة

أدلة صدق النبي ﷺ في دعواه الرسالة نوعان:

١- عقلية: يدركها أصحاب العقول السليمة فيقنعون.

٢- حسية: أوجدها الله تعالى على يد رسوله لتطمئن نفس الشاك وتنقطع حجة الجاحد المنكر.

أ- الأدلة العقلية

(١) القرآن الكريم

---

(١) آل عمران: ١٦٤.

(٢) آل عمران: ٣٠.

ثبت بالتواتر وإجماع الأمم كافة أن النبي ﷺ أخبر بأن الله تعالى أنزل عليه قرآنًا عربيًّا، كما ثبت بالتواتر أنه تحدى فصحاء العرب وطلب منهم أن يأتوا بمثل هذا الكتاب، أو بما يماثل سورة من أقصر سوره وأمهلهم زمنًا طويلًا فعجزوا عن معارضته، وتحديهم وعجزهم عن المعارضة مع حرصهم على هدم الدين ووجود هذا الداعي لديهم واشتهارهم بالفصاحة والبلاغة؛ كل ذلك يدل على أن القرآن ليس من صنع البشر وإنما هو كلام الله رب العالمين؛ فالنبي ﷺ صادق في دعواه الرسالة، والذي يدل على أنهم عجزوا عن المعارضة والإتيان بمثل القرآن أن هذا الأمر- لو حدث- كان سيشتهر بين الناس ويتراجع الداخلون في هذا الدين عنه لأنهم سيتأكدون حينئذ أنهم على الباطل لا على الحق ولكن الناس دخلوا في دين الله أفواجًا حتى استمر الإسلام إلى اليوم وسيظل إلى قيام الساعة.

(٢) سيرته قبل البعثة وبعدها

ولد الرسول يتيمًا وكان يعيش في وسط كانت العادة فيه تحتم عليه أن يتأثر بأخلاقه الفاسدة؛ فيلهو كما يلهون ويعظم الأصنام كما يعظمها عشيرته ولكنه برغم نشأته بينهم واختلاطه بهم تنزه عن اللهو وهوصغير ولم يتعلق قلبه بصنم بل عُرِف بحسن الخلق وحسن العِشرة والأمانة فكان يُلقب بين الناس بالصادق الأمين؛ عُرف بهذه الأوصاف الجليلة ولم يؤدبه ذلك الأدب الرفيع إلا ربه سبحانه وتعالى، وقد أخبرنا الله تعالى عن ذلك فقال: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ

﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾[1] وقال ﷺ: «**أدبني ربي فأحسن تأديبي**» وبعثه الله تعالى- على أخلاقه هذه- في سن الأربعين فكانت أخلاقه الحسنة في ازدياد قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[2].

وقال عليه الصلاة والسلام: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**».

ويكفي في هذا ما فعله ﷺ مع أهل مكة وقد آذوه واستهزئوا به وأخرجوه من داره، ومعه أصحابه وقاتلوه؛ فلما فتح مكة وصار الأمر بيده عفا عنهم، وقال لهم: «**ما تظنون أني فاعل بكم؟**» قالوا: خيرًا أخ كريم وابن أخ كريم قال: «**اذهبوا فأنتم الطلقاء**».

وانظر إلى ما قالته السيدة خديجة رضي الله عنها حين جاء إليها الرسول يرتعش بعدما نزل عليه جبريل لأول مرة قال لها: «**قد خشيت على نفسي**» فقالت: «كلا أبشر والله لا يخزيك الله أبدًا إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق» تقول قولتها الرائعة هذه بعد خمسة عشر عامًا من زواجها برسول الله؛ أي أخلاق هذه أخلاق النبوة؟!

إن الزوجة التي تقول ذلك عن زوجها بعد هذه السنين لا يمكن أن يكون زوجها كذابًا إن العقل يحكم باستحالة كذب من تكون به هذه الأوصاف.

---

(١) النساء: ١١٣.

(٢) القلم: ٤.

(٣) إخبار الكتب السماوية بنبوته ﷺ

بشارات التوراة

في التوراة في سفر التثنية: (أقبل الله من سيناء، وتجلى من ساعير، وظهر من جبال فاران، ومعه وابورات الأطهار عن يمينه) هذا النص فيه إشارة إلى نبوة موسى، وعيسى، ومحمد عليهم الصلاة والسلام؛ فلفظ (أقبل الله من سيناء) يشير إلى الجبل الذي كلم الله موسى عليه، ولفظ (تجلى من ساعير) يشير إلى المكان الذي ظهر منه عيسى، وهي قرية ببيت المقدس، ولفظ (وظهر من جبال فاران) يشير إلى الجبل الذي كان يتعبد النبي محمد ﷺ في غاره حين نزل عليه الوحي.

و«فاران» هي مكة باتفاق الجميع، وقد جمع الله هذه الأماكن المقدسة في قوله تعالى: ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ۝ وَطُورِ سِينِينَ وَهَـٰذَا ۝ ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ ﴾[1].

وقال في التوراة في سفر التكوين «وأن الملك ظهر لهاجر أم إسماعيل فقال: «يا هاجر: من أين أقبلت؟ وإلى أين تريدين؟ فلما شرحت له الحال قال: «ارجعي» فإني سأكثر ذريتك وزرعك حتى لا يحصون كثرة، قومي احملي ولدك إسماعيل» «وشدي يدك لأن الله قد سمع تذللك وخضوعك».

«ومن ولدك يكون وحي للناس وتكون يده على الكل ويد الكل مبسوطة» «إليه الخضوع».

---

(١) التين: ٢.

فقوله: «من ولدك يكون وحي للناس إلخ» صريح في دلالته على النبي محمد ﷺ لأنه لم يوجد من ولد هاجر من ينطبق عليه هذه الأوصاف إلا هو ﷺ.

بشارات الإنجيل

في إنجيل متى الإصحاح (١١) عدد (١٤) «وإن أردتم أن تقبلوا فهذا هو إيليا المزمع أن يأتي من له أذنان للسمع فليسمع»، والرسول محمد ﷺ ليس بينه وبين عيسى نبي فيكون إيليا الذي بشَّر به عيسى هو محمدًا ﷺ، وإيليا بحساب الجُمَّل الذي شاع عند اليهود يساوي (محمدًا).

وفي إنجيل يوحنا إصحاح (١٤) عدد (١٥): «إن كنتم تحبوني فاحفظوا وصاياي، وأنا أطلب من الآب فيعطيكم معزيًا آخر ليمكث معكم إلى الأبد» وفي اللغات الأجنبية «فيعطيكم باركليتوس ليمكث معكم إلى الأبد»، والمعنى الحرفي لكلمة «باركليتوس» اليونانية هو أحمد، وهو من أسماء النبي ﷺ.

* في إنجيل برنابا في الفصل الثاني والسبعين ما نصه «وفي الليل تكلم يسوع سرًّا مع تلاميذه قائلًا: الحق أقول لكم، إن الشيطان يريد أن يغربلكم كالحنطة، ولكني توسلت إلى الله لأجلكم، فلا يهلك منكم إلا الذي يلقي الحبائل إلي، وهو إنما قال هذا عن يهوذا، لأن الملاك جبريل قال له: كيف كانت ليهوذا يد مع الكهنة، وأخبرهم بكل ما تكلم به يسوع فاقترب الذي يكتب هذا إلى يسوع بدموع قائلًا: يا معلم، قل لي من هو الذي يسلمك؟ أجاب يسوع قائلًا: يا برنابا ليست هذه الساعة هي التي تعرفه فيها ولكني يعلمني الشرير نفسه قريبًا،

لأني سأنصرف عن العالم، فبكى حينئذ الرسل قائلين: يا معلم لماذا تتركنا لأن الأحرى بنا أن نموت من أن تتركنا، أجاب يسوع: لا تضطرب قلوبكم، ولا تخافوا لأني لست أنا الذي خلقتكم، بل الله الذي خلقكم يحميكم، أما من خصوصي فإني قد أتيت لأهيئ الطريق لرسول الله الذي يأتي بخلاص العالم، ولكن احذروا أن تغشوا، لأنه سيأتي أنبياء كثيرون، يأخذون كلامي وينجسون إنجيلي، حينئذ قال أندراوس: يا معلم اذكر لنا علامة لنعرفه.

أجاب يسوع: إنه لا يأتي في زمنكم، بل يأتي بعدكم بعدة سنين، حينما يبطل إنجيلي، ولا يكاد يوجد ثلاثون مؤمنًا في ذلك الوقت، رحم الله العالم فيرسل رسوله الذي تستقر على رأسه عمامة بيضاء، ويعرفه أحد ممتازي الله، وهو سيظهر للعالم، وإني أسر بذلك لأنه بواسطته سيعلن ويمجد الله، ويظهر صدقي، وسينتقم من الذين يقولون إني أكبر من إنسان، فليحذر العالم أن ينبذه، لأنه سيفتك بعبادة الأصنام؛ إلى أن قال: وسيجيء بحق أجلى من سائر الأنبياء، وسيوبخ من لا يحسن السلوك في العالم، وستحيا طربًا أبراج مدينة آبائنا، فمتى شوهد سقوط عبادة الأصنام إلى الأرض واعترف بأني بشر كسائر البشر، فالحق أقول لكم أن نبي الله حينئذ يأتي».

(٤) إخباره بالمغيبات

أخبر النبي ﷺ بأمور غيبية جاءت في القرآن، وأمور أخرى ثبت إخباره بها في الأحاديث الصحيحة، أما القرآن فمنه قوله تعالى: ﴿ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝ فِيٓ أَدۡنَى

ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ ﴾ سَيَغۡلِبُونَ[1] وقد تحقق هذا الوعد بعد سبع سنين من نزول الآية.

وقال تعالى: ﴿ لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمۡ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ﴾[2] وقد تحقق ذلك فقد دخل الرسول وأصحابه مكة آمنين حلق بعضهم وقصر بعضهم للعمرة، وذلك بعد أن صدتهم قريش عن مكة أول مرة وقال: ﴿ سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾[3] سورة القمر مكية والجهاد لم يشرع إلا في السنة الثانية من الهجرة فلما نزلت الآية وكان المسلمون قلة في العدد والعدة سأل عمر بن الخطاب: أيّ جمع هذا الذي سيُهزم؟ فلما كانت غزوة بدر رأى رسول الله ﷺ وهو لابس الدرع ويقول: ﴿ سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾ فعرف عمر تأويلها.

أما ما ثبت إخباره به من طريق السنة فكثير، منه إخباره بأن أول من يموت من أزواجه بعده زينب وكان كما قال، وإخباره بموت النجاشي ملك الحبشة

---

(١) الروم: ٢-٣.

(٢) الفتح: ٢٧.

(٣) القمر: ٤٥

وهو بأرضه، وغير ذلك، ولا شك أن إخباره بتلك الشئون الغيبية- وهو أمي نشأ بين قوم أميين ولم يجلس أمام معلم- يدل على صدق نبوته ﷺ.

(٥) انتشار الإسلام بسرعة مذهلة

صح في التاريخ أن الدين الإسلامي جمع إليه الأمة العربية في أقل من ثلاثين سنة، ثم تناول من بقية الأمم ما بين المحيط الأطلنطي والصين في أقل من قرن واحد.

وهذا أمر لم يعرف في تاريخ الأديان، وتعجب الناس لهذا الانتشار فزعم بعضهم أنه بسبب السيف والإكراه على اعتناق الدين، وهذا افتراء كاذب، والسبب الصحيح هو ما يلي:

موافقة أصول الدين ومبادئه وتشريعاته وأهدافه للعقل السليم، وسهولة تكاليفه ويسرها، وكفالته السعادة النفسية في الدنيا والنعيم في الآخرة، لقد كان الملوك غير المسلمين إذا فتحوا مملكة نشروا دعاة في أنحائها تكره أهلها على اعتناق دينهم، وكان الأمر يصل إلى حد أن بعضهم كان يلقى حيًّا إلى الوحوش والحيوانات المفترسة وكان بعضهم يحرق بالنيران كما فعل الرومان بالمسيحيين؛ أما المسلمون فكانوا يدافعون عن الحق بالأدلة العقلية والمنطق الواضح، وإذا فتحوا بلدًا واستقر سلطانهم تركوا أهلها على دينهم يقيمون الشعائر آمنين لهم ما للمسلمين من حقوق وعليهم ما على المسلمين من واجبات، ويأخذون من أموالهم جزءًا يسيرًا مقابل القيام بحفظ دمائهم وأموالهم وإنشاء المرافق العامة في البلاد، ويشرحون لهم تعاليم الدين ويتركون لهم الخيار في قبول الدين وعدمه

منفذين قول الله تعالى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾[1]، وأن الإسلام أيضًا يدعو إلى مكارم الأخلاق وإلى التكافل الاجتماعي بين الغني والفقير، وامتياز الدين بالعدل المطلق في القضاء بين الناس، والتسامح في المعاملات الإنسانية بجميع أنواعها، وإتيان الإسلام بالعقائد الصحيحة في الله والأنبياء والرسل بما يقنع العقل السليم والفطرة المستقيمة كل ذلك ساعد على انتشار الإسلام ودخول الناس فيه من جميع أنحاء الدنيا.

ب- الأدلة الحسية

قلنا قبل ذلك إن الناس بالنظر إلى استعدادهم وإدراك الحق وتمييز الخبيث من الطيب ليسوا في مرتبة واحدة؛ فمنهم من سمت أفكارهم وعلت مداركهم؛ فأمكنهم أن يصلوا إلى إدراك ما خفي على غيرهم، ومنهم من انحطت قوته الفكرية فاستسلمت لعالم الحس فكان قائدها ورائدها؛ فلا تؤمن إلا بما يقع تحت الحس.

ولم يخلُ عصر النبي ﷺ عن هذين الفريقين؛ فلهذا جاء في تأييد دعواه بما يناسب كل فريق.

فأيَّده الله تعالى بالقرآن الكريم والأدلة العقلية التي تقدم ذكر بعضها؛ فاقتنع بها المنصفون من العقلاء وأصحاب الفكر الراقي.

---

(١) البقرة: ٢٥٦.

أما الفريق الثاني فلم تكفه تلك الأدلة لعجزه عن فهم الأسرار وإدراك المعقولات على الوجه الصحيح أو بسبب عناده، فأراد الله تعالى أن يقطع حجته ويأتي له بآيات تناسب حاله؛ فأظهر على يد النبي ﷺ كثيرًا من المعجزات الحسية الخارقة للعادة.

وقد تقدم في مبحث المعجزة ذكر بعضها، فارجع إليه إن شئت؛ فنخلص من ذلك إلى أن الله سبحانه وتعالى أيد نبيه محمدًا ﷺ بأدلة عقلية وحسية إذا تأملها المنصف العاقل لا يسعه إلا أن يجزم بنبوته ﷺ، وبأن من خالفه معاند بغير حق فلا يُلتفت إليه.

عموم رسالته ﷺ

في مبدأ تكليف عالم الإنسان باعتناق الدين كانت أفراده بالنسبة لفهم مصالحهم وتحصيل ما ينفعهم كالطفل الحديث الولادة فلا يألف إلا ما يقع تحته عالم الحس والمادة فكان الله بحكمته البالغة يسير بهم في شأن التكليف بالتدريج على حسب الاستعداد الموجود عندهم؛ فكان يرسل ما بين وقت وآخر إلى كل طائفة على حدة رسولًا يصلح من شأنها ويكلفها بما يتناسب مع حالها.

وإذا نظرنا إلى تاريخ الرسالات والرسل نجد أن كل رسول قبل خاتم الأنبياء ﷺ إنما أرسل إلى قومه، ويرى كل رسالة قبل رسالة الإسلام إنما جاءت لمرحلة من الزمان؛ رسالة خاصة لمجموعة خاصة في بيئة خاصة؛ فكانت كل الرسالات محكومة بظروفها متكيفة بها مع اشتراكها كلها في الدعوة إلى إله واحد هو الله تعالى.

ولما جاء وقت إرسال سيدنا محمد ﷺ، وكان الإنسان قد وصل إلى كماله البشرى، واستفاد من الحوادث الماضية ما ينبهه إلى وجوب استعمال عقله وإلى أنه هو المميز بين صحيح القول وفاسده؛ في تلك الحالة يكون جمع الناس على كلمة واحدة، وتدينهم بدين واحد يخاطب العقل، ويدعوه إلى التدبر والتأمل في تفهم المصالح عن طريق التعاون بين أفراد ذلك النوع الواحد أمرًا ميسورًا.

وإذا نظرنا إلى سيدنا محمد ومنزلته بين الأنبياء اتضح لنا أنه امتاز بكمال الأخلاق فيه أكثر من غيره، وليس معنى ذلك النقص في حق الأنبياء فصفات الكمال فيه أتم من غيره أما أصل الصفات الفاضلة والأخلاق العالية فهي متحققة في جميع الأنبياء؛ فإذا كانت هذه منزلته ﷺ والناس- كما قلنا- قد وصلوا إلى طور الكمال البشري فإن الحكمة تقتضي أن يكون كل البشر خاضعين لقانون واحد يكفل مصالحهم ويكون سببًا في سعادتهم الدنيوية والأخروية.

لهذا أعلن القرآن أن رسالة سيدنا محمد عامة لا تختص بزمان ولا مكان ولا بطائفة دون طائفة وأنها تجمع الناس تحت منهج واحد هو طريق الله رب العالمين.

ومما يدل على ذلك آيات كثيرة نذكر منها:

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾[1].

---

(١) الأنبياء: ١٠٧.

وقال تعالى: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْ ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ﴾[5].

وقال تعالى. ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ يَـٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَـٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ

---

(١) سبأ: ٢٨.

(٢) الأعراف: ١٥٨.

(٣) النساء: ١٧٠.

(٤) الفرقان: ١.

(٥) المائدة: ١٩.

طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[1].

وقال ﷺ: «كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى كل أحمر وأسود»[2].

شريعة الإسلام دائمة لا تُنسخ

قلنا: إن كل رسول قبل سيدنا محمد كان يرسل إلى أمة خاصة بشريعة تكفل مصالح هذه الأمة التي أرسل إليها في زمن خاص، ومتى انتهى ذلك الزمن وأهله وجاء قوم آخرون تجددت الحاجة إلى شرع جديد يناسب هؤلاء القوم، ولم يعرف شريعة قبل الإسلام جاءت صالحة لجميع الأزمان، أما شريعة سيدنا محمد فقد جاءت في زمان كمال الإنسان في الإدراك وتفهم المصالح؛ فاقتضت حكمة الله أن تكون هذه الشريعة صالحة لجميع بني الإنسان ملائمة لجميع الأزمان، ومن هنا فهي شريعة عامة دائمة لا تتغير ولا تتبدل؛ جاءت بكل ما يصلح شأن الإنسان من عبادات ومعاملات وأخلاق وفضائل ولم تترك خيرًا إلا دلت عليه ولا شرًّا إلا حذرت منه.

---

(١) الأحقاف: ٣١.

(٢) جزء من حديث رواه البخاري ومسلم.

وكمال هذه الرسالة المحمدية أشار إليه القرآن في قوله تعالى: ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ ﴾[2]، فلم تترك هذه الشريعة شيئًا مما يحتاج إليه الإنسان حتى آداب النوم والأكل والشرب وقضاء الحاجة؛ ففي حديث سلمان: «علمنا رسول الله كل شيء حتى الخِراءة[3]»[4]؛ فشريعة النبي ﷺ جاءت وافية كافية مطابقة للفطرة الإنسانية؛ ولذلك فهي جديرة بأن تكون آخر الشرائع وناسخة لكل شريعة قبلها؛ فلقد جمعت الشريعة الخاتمة محاسن الرسالات السابقة وزادت عنها كمالًا وجلالًا.

يقول الحسن البصري: «أنزل الله مائة وأربعة كتب أودع علومها أربعة: التوراة والإنجيل والزبور والفرقان (القرآن) ثم أودع علوم الثلاثة الفرقان».



---

(١) المائدة: ٣.

(٢) النحل: ٨٩.

(٣) الخراءة: أدب قضاء الحاجة.

(٤) رواه مسلم.

